

# ابو حاتم

النَّسَاءُ  
الْمَنَسِيَّةُ مَرَّتَيْنِ

إله عبيد



مكتبة اقرأ الثقافية  
www.iqra-ahlamontada.com



www.iqra-ahlamontada.com

مكتبة (كوردی، عربی، فارسی)

بۆدابه زاندىنى جۆرمه كىتىپ: سەردانى: (مُنْتَدَى إِقْرَأَ الثَّقَافِي)

لتحميل انواع الكتب راجع: (مُنْتَدَى إِقْرَأَ الثَّقَافِي)

پەراي دانلود كىتاپهاى مەختەلف مەراجعه: (منتدى اقرا الثقافى)

[www.iqra.ahlamontada.com](http://www.iqra.ahlamontada.com)



[www.iqra.ahlamontada.com](http://www.iqra.ahlamontada.com)

للكتب ( كوردى ، عربى ، فارسى )

سلامته عجيبه

# أبو صابر

الشارع  
المنسيُّ مرَّتين

منشورات وزارة الثقافة

دمشق  
١٩٧١

## مقدمة

ابو صابر ... بطل من بقايا السيوف ، لا يزال حياً ... قصة  
حياته اسطورة إباء وإيمان ...

كان ينكلم ، وكنت أسجل حديثه يوماً بعد يوم ... تكاد  
تكون كلمات هذه القصة كلماته بنصها والصور صورته بألوانها وأبعادها .  
لو كنت قصاصاً لأبدعت له نهاية غير تلك النهاية ولكني  
كتبت هنا ما سمعت وما رأيت ...

سيختلف الأدباء والأصدقاء في تقييم هذا العمل الأدبي ، فناً  
ولغة وتأثيراً ، ولكنهم يتفقون جميعاً على أنها قصة رواها تاجر صادق  
وكتبها قلم أثر أن يظل صادقاً ...

سحره عبيد

## الفصل الأول

- ابو صابر ...

- تفضلوا ...

صوت خافت مر نجف مجيب ، ووقع خطوات متشاقة يقترب .

وارتفع صرير البوابة الخشبية المتهاكة حاداً متقطعاً ، وبرزت من خلفها  
عينان متعبتان تحيط بها تجاعيد رسمتها ريشة زمن قاس وظللتها الوان قائمة من  
الحرمان والارق والانتظار المرهق الطويل ،

- تفضلوا ...

وعادت تحاول الامراع وهي تكرر :

- تفضلوا ...

لم اتبين من ملاحظتها سوى عينيها ، فقد كانت تلف رأسها على عادة النساء  
الجليات بمنديل مميك ابيض ، يرتقي على صدرها وكتفيها وينساب على ظهرها  
حتى يكاد يلامس الأرض ، ويرتفع طرف منه لثاماً يغطي نصف وجهها ليلتف  
مرة ثانية فوق طربوش قصير لاصق بالرأس يكاد لا يتبينه المرء لولا استدارة  
ضيقه في قته .

وبدت العجوز وهي تتعثر في خطاها وبأذيال ثيابها السوداء الفضفاضة التي

تكاد تكلس الأرض ، بدت قصيرة منحنية تحت اعباء حمل غير منظور .

ودخلنا خلفها ، وبعد ان اختلت في داخل البيت ، باحة ضيقة طويلة يغطيها بلاط حجري بدائي يتلاصق ويتباعد بلا نظام وتظللها شجرة ضخمة من التوت الابيض يمتطي احد غصونها طفل حافي القدمين بدا شاحبا معروفاً ، توقف على ما يبدو عن هز اغصان الشجرة عندما فتحت البوابة ، فقد كانت لمار التوت واوراقه متناثرة فوق الباحة وعلى اطراف حصير عتيق كانت تتغله في يوم من الأيام بعض الحيوط الملونة .

ولم نعر الدجاجات القليلة ابي اهتمام لوقع اقدامنا فقد كانت منهكة بالتهام الثمار المنتثرة فوق البلاط البازلي وبين جنباته .

ونوقفنا قليلا تحت دالية فنية ترتفع وتمتد فوق اعمدة رفيعة من الحشب وقطع من الحديد متفاوتة في اطوالها يتغلها جميعاً اسلاك من شريط او احواد قصب ، وكانت عناقيد الحصرم تتدلى ضئيلة متباعدة ، وقد ارتسم بعضها على صفحة المياه الصافية في خاية جديدة ضخمة .

- تفضلوا ... اهلا وسهلا .

وكان الصوت هذه المرة اجش متقطعاً تتبعه مهمة خافتة كأنما هو يصدر من جنبات كهف بعيد ، ودخلنا غرفة بدت مظلمة عندما كنا نسد باجسامنا بابها المنخفض الضيق في حين تراكم في ارض النافذة الوحيدة الضيقة وعلى جنباتها شتى الادوات المنزلية الصغيرة وبعض علب التبغ والكبريت .

كان واقفاً في فراشه يرتجف وقد اسند يده اليسرى الى الجدار ، وهو يجهد في ان يتقدم ليصافحنا .

هذا هو ابو صابر ...

بيجاما بيضاء متهتلة ، تخرج من كمها كفان ضئيلتان دقت اصابعها

واستطالت وبدا جلدهما المتجمعد وكأنه يغلف عظامها مباشرة ، ويرتفع بين منكبيها وجه شاحب معروق يغطيه شاربان كثيفان اشبيان وشعر خفيف ناعم تلمع في اطاره الاغبر عينان تقرأ في نظراتها صراعاً صارخاً بين المرارة والتجلد والياس والطمانينة ، وحاول من جديد ان يتقدم في حركة استجمع لها كل ما تبقى لديه من قوة وعزيمة ، وخيل الي انها كانت اكثر من حركة ترحيب لقد كانت تمحداً للمرض والشيخوخة والساق التي بدأت تتصلب .

كنت اتردد عليه بين الحين والحين وكان يلقاني كما يلقي زواره القلائل بكل ترحيب وبشاشة يقدم لهم بنفسه الشاي والتبغ والسكاكر ويروي لهم بكل أنس طرائف اخباره اما اليوم فانه لم يحمل شيئاً من بشاشته وترحيبه الا انه بدا اكثر اهتماماً بمغالبة عجزه بكبرياء الذئب الجربع .

واجلسناه في فراشه ، وهو يلهث لهاثاً خافتاً وقد تصببت قطرات العرق على وجهه الموميائي .

اسند ظهره الى عدد من المهدات القصيرة النظيفة الملونة فوق فراش رقيق وغطى ساقيه بشرشف قطني امتد على قسم من سجادة محلية ضيقة ، وجلسنا نحاوله بين منكميء على مخدة صوف خشنة او متربع فوق حافة فراش تمتد تحته حصير او بساط من شعر الماعز وقد نسبنا ان نخلع احذيتنا في مدخل الغرفة على عادة اهل البلد ، ولا ادري إذا كان ذلك لتسرهننا في استناد ابي صابر وهو يرتجف واقفاً مرجباً ، أو لاعتقادنا بان مثل تلك العادة صالحة لفصل الامطار والوحول .

وبدأت احاديث مجامة ، وانطلق الصوت الاجش المتقطع :

- فاي يا عيال ..

وكانت طقطقة ( البريوس ) وهدير النار قد بدأ منذ اللحظة التي دخلنا

فيها الغرفة . ولم نستغرب لفظة الثاني منه وقد نسي اللفظة البلدية « شاي » واعتاد ان يلفظها هكذا طوال ربيع قرن .

ودق الباب المشترك بين الغرفتين دقات خفيفة وبرزت صينية صغيرة فوقها بضعة اقداح من الشاي القاتم فقد كان ابو صابر لا يستسيغ الشاي الا على الطريقة المغربية :

- فرنك قاي فرنك حكر .

وتوقفت اليد المسكة بالصينية ، فادركت ان الولد لا يزال يمز شجرة التوت وان المرأة تجمع عن الدخول الى غرفة فيها اغراب لا تعرفهم .

تناولت الصينية وسمعت دعاء خافتاً يتردد داخل الغرفة المجاورة الأشد ظلمة ، واعتذاراً متلجلجاً من الشبح المستند الى الوسائد الملونة .

وللمرة الثانية دق الباب المشترك وتوقفت بين مصراعيه صينية واسعة زينت جوانبها اوراق خضراء وانتصب فوقها هرم من ثمار التوت البلدي ، وإلى جانبه طاسة مملوءة بالماء الصافي .

وبدأت الأيدي تمتد الى الثمار بين فاضحة رخوة او متماسكة لتجياها في الطاسة التي راح ماؤها يزداد اصفراراً كلما امتدت اليه يد بشرة جديدة .

وألح ابو صابر في اعتذاره عن القهوة المرة ، فهو لم يعد يقوى على تحميصها ودقها في الجرن الحشبي المزخرف الذي بدا منزوياً كتيباً تنتصب حوله مجموعة من الدلال النعاسية البهراقة في حين ارتفع مهباج ممشوق صقيل معلقاً في ركن من اركان القنطرة .

ورحت بين الحين والحين انقل النظر بين السقف الحجري والجدران المغطاة ببعض الزخارف من التراب المحفف وبكثير من الصور الصق أكثرها يخطف من تجمهم اللطين وظلال القناطر الحجرية الضخمة ..



و كنت استرق النظر الى اطار صغير بلا زجاج يحيط بصورة لشابين بدا  
أحدهما في لباس الجبل التقليدي ، حلطة واسعة الأكام وقباز ابيض مخطط وقد  
استرسل شعره حتى الكتفين وارتفع الشاربان معقوفين فوق شفتين مضغوطتين ،  
أما الثاني فقد كان بلبس طربوشاً فوق بذلة عسكرية كثيرة الازرار وكان واضحاً  
انه يافع وانه يحاول أن يعطي لقسمات وجهه صلابة الرجال الجليين وصرامة  
نظراتهم .

واستطعت ان اقرأ العبارة المكتوبة تحت الرسمين فقد كان ضوء الباب  
ينسكب مع الأصيل مباشرة على ذلك الركن من الجدار ، وكانت الاحرف  
باهتة غير انها كانت كبيرة واضحة :  
- هاذة صورت حمود وحمد .

حمود وحمد ..

واحس ابو صابر ان الصورة اثرت اهتمامي ، رغم كل محاولة مني لتستر  
على ذلك الاهتمام ، فتهند ومسح من عينه دمعة كادت تتدحرج على خده النائي :  
- استاذ ! انت لا تعرف حمود ، حمود قتل في قلعة راشيا ، على سلم  
القلعة قدام الثوار ، وبقي حمد ، بقي للعذاب والمرارة ، لبلي زواره بذكريات  
المنافي والسجون ...

ومسح الزبد عن شفتيه ، واشعل سيجارة كانت قد انطفأت بين اصابعه  
وتابع وهو يغص في كل مقطع .  
- ماذا بقي منك يا حمد ...

وقطع تهدياته دخول الطفل الشاحب المعروق الذي كان يتمطي  
شجرة التوت .

- سلم يا صابر ... قل اهلاً وسهلاً ...

وردد الولد بصوت جهوري شجاع : اهلاً وسهلاً .

ثم تقدم ، يضرب بقوة يشد اليد الممدودة لمصافحته ويرفعها الى شفتيه  
ثم رأسه .

- لا يا صابر ... سلام شباب ! ...

قلت ذلك وشدت على يده مصافحاً وأحسست وكأنه ارتاح الى هذه  
الطريقة الجديدة في السلام ولكن دون ان يستطيع التغلب على انتظاره للقبلة  
على خده أو رأسه .

- مخدومكم صابر ، وعندي غيره ثلاثة من حمد الله ... ورفع كفه الى  
شفتيه ثم الى جبينه وتابع ...

من كان يحلم انني اعود الى الوطن حياً ، وبصير عندي اولاد ، بعد  
عشرين سنة من المنفى في فرنسا وفي الغويان ، من كان يعتقد ان امي تضمني الى  
صدرها واذا في السجن اموت مرة كل يوم ...

ونوقف ينفت دخان سيجارته في جو الغرفة الذي بدأ يتراكم في حزم  
اشعة شمسها خليط من سحب الدخان الشفاف وذرات الغبار المتدافعة :

- مالك ومال الماضي يا حمد ... اهلاً وسهلاً .

مالي علم انك بنجيل يابو صابر ... حدثنا ... ان قصة حياتك جزء من  
طفولتنا كانت حديث سهراتنا ...

- ركبه على دبابة حديد ، مربوط بالشاش الملتطخ بالدم ، حراس عن  
يمينه وحراس عن شماله والمسدس فوق رأسه ، ناس قلائل شاهدوه ، كلهم عزّ عليهم

ان يأخذوه أسيراً .. ولكن الثوار كانوا بعيدين ... في الجبال . . فوق ...  
وكننا نساءه ، والرياح الباردة تلسع ظهورنا من تحت رواق الحيمة :  
- قتلوه ؟ ... لا ... لا ... حمد بطل ... سوف يرجع ... وسنلاقيه  
على المزرعة بالحداء . .

وبكى ابو صابر بكى مثلما تبكي النساء وتمم :  
- واذا ايضا كنت اعرف انني سأعود ... وعدت ، عدت ولكن لم يعرفني  
احد ، أمي وحدها فرحت بي ، الناس نسوا ابو صابر يا استاذ ، نسوه .

## الفصل الثاني

كان عباس ذياب معلم عمار يساعده في عمله ولده حمود ، شاب يحمل الحجارة على ظهره ويضرب بالملهدة والشاقوف بهمة وحماسة ، وفي المساء يعلق ثياب العمل في الوتد الخشبي البارز من الكوارة ، ويرتدي ثيابه الحريرية ويدهن شعره المسترسل بالزيت والعطر ، وتبدأ سهرات الرابة والمجوز حتى ساعة متأخرة من الليل .

اما حمد ، اخو حمود ، فلم يكن بيدي اي رغبة وحماسة لهذه الطريقة في الحياة فهر شاب صغير ، يحلم بالسيف والبندقية والفرس ، وتنتويه بذلات الجندية بل الجندرية ذات الازرار النحاسية الواسعة البراقعة والقلوب الاسود والبارودة ( العصمية ) الطويلة والجزمة الضخمة السوداء الشديدة المعان ، يبرز منها مهباز كأنه من فضة .

ويبدو انه مصمم على ان يكون جندياً او ان لا يكون شيئاً في هذه الحياة .

وحاول ابو حمود ان يلوح له بالعروس . فقد بحس بمؤولية البيت وتخف مع الزمن حماسه لصناعة الحرب ، ولم يكن الاب زاهداً في الفروسية فهو يجيدها . فقد اتقن ، شأن اترابه جميعاً ، ركوب الخيل وهو يدرس اجيراً في

بيادر البلدة ، وتعلم السباحة مع انداده في المطبخ الواسع ومن ثم في ( السوربة ) ، حيث يقفز السباحون الصغار من النافذة المرتفعة او من الحاكمة الاكثر ارتفاعاً ، يسترون عورتهم بايديهم لا يرفعونها حتى يضربوا باقدامهم المضمومة سطح الماء الاخضر الآسن ، في حين يتسلق بعضهم الجدار المرتفع ليمرغ في التراب الناعم الدافئ ، ويلقظ من جديد ، غير مكترث بالنسوة القلائل اللواتي كن يهطن عشرات الدرجات الحبرية البدائية الضيقة المرهقة لتناول بعض الماء في جرار مخروطية من التلك ، بينما ترفع رفيقاتهن الجرار فوق اكتافهن ويصعدن الدرج الرهيب في جهد وحذر واضحين .

اما استعمال البندقية فقد كان شائعاً ، كل بيت فيه بارودة وفي كل عرس تحرق عشرات الامشاط ، واذا صاح المفزع حمل كل واحد سلاحه وانطلق بلا القضاء فاراً وباروداً ، وفي مناسبات كثيرة يتسابق الرماة في محاولة لقطع قضيب رفيع ينصب في السهل الواسع او مسلة مغروسة في زاوية من زوايا السطح .

كان ابو حمود مجيد الفروسية ويتعشقها ولكنه ما كان يرغب ان تكون للفروسية راتباً يقبض آخر الشهر ، فهو يتعاضى مثل اتوابه من اجاويد ذلك الزمن ان يدخل بيته مال من الحكومة ، ومال الحاكم في نظرم محرم .

واستعان الوالد بالام :

— حظ عينك يا محمد ، ابوك لا يعزّ عنك اي شيء ...

وازداد الشاب عناداً .

— العروس بعد البدلة يا امي .

وافاقت الام ذات يوم لتجد فراش حمد خالياً ، ولم تستغرب فقد كانت واثقة من انه لن يبقى في البيت عائلة على والده واخيه ، وادركت انه سيقوم بمغامرة وانه لن يستقر حتى تلمع الازرار الكبيرة الصفراء على صدره .

احسنت بالوحشة لرفاقه ولكنها كانت مطمئنة مستسلمة القدر استسلاماً هادئاً ، واكتفت بالدعاء له وهي تنتظر بكل لهفة وشوق بعض اخباره .  
و ذات يوم فتحت الخويجة في بوابة أبي حمود وأطل منها طربوش احمر وكانت ام حمود تنشر الغسيل فوق بعض الحجارة المتناثرة في زاوية الباحة ، فرفعت لثامها في حركة خاطفة وعضت عليه باسنانها وخنقت صرخة دعر ما لبثت ان عقيتها عبارات الترحيب المتدافقة وقد سقط اللثام عن وجهها وراحت تغمر القادم الغريب الزي في لهفة ام .

وشعرت ام حمود ان الجيران والحارات والأولاد والبنات قد تجمعوا امام بوابة الدار ونجراً بعض الصبيان على اقتحام الباحة بينما اسرعت بعض النسوة الى السطوح المطلة على الباحة ليشهدوا الشاب الغريب الزي ، الشديد الغرابة :  
طربوش احمر طويل واسع ، وبذلة عسكرية تلمع على صدرها ازرار كبيرة صفراء ويشد خصرها حزام عريض من الجلد اللامع وحذاء اسود ضخيم مرتفع تدق ماميره الكبيرة الأرض دقا ، ولفافات سمراء تشد الساقين في طيات متعاقبة مرصوفة .

وعندما عاد أبو حمود من عمله ، وهم بفتح الخويجة عيقت بانفه رائحة المغربية الشهية ، وشاهد أمام البوابة ريش الديك المزهر الوحيد عريس الدجاجات فادرك ان في البيت ضيفاً غالياً .

قبل ابو حمود ولده مجنان متحفظ ، فهو لا يريد ان يشجعه ولكنه لا يستطيع ان يكون قاسياً عليه ، وان هو غادر البيت بدون استئذان ولبس البذلة العسكرية دون موافقة والديه .

كان فاتراً ولكنه مع ذلك ظل يحتلس نظرات الاعجاب والاعتزاز الى ولده الشجاع المعتد بنفسه .

وأحسن الوالد ان فرصة التلميح بالعروس أصبحت ممكنة فأمر الى الأم ،  
التي امرعت الى ولدها تحتلي به :

- حط عينك يا حمد ، كلنا قدامك .

ابتسم حمد هذه المرة .

وأحست الأم بنشوة الفرح تسري في عروقها وكادت تزغرد . ولكن  
كيف تزغرد وهي لا تعرف من يعني حمد بهذه الابتسامة .

فعادت تطلب اليه ويرجاء أن يسمي .

ونطق حمد باسمها بحياء وللعلم .

وبدت في عيني الام نظرة ارتياح وفرح : حمد لا يخيب الظن ، لقد  
أحسن الاختيار .

- اتكلنا على الله .

وطبعت الأم على جبين ولدها قبة خاطفة .. وبدأت وشوشات الحفي .

- فلانة على حساب فلان .

- يستاهل . تستاهل هي .

أهلها لا يزوجون الطربوش الأحمر . الطربوش الأحمر ما هو عيب ، الشاب  
من انبل الشباب ، صحيح انه ما هو غني ، وان عائلتهم ما هي من عائلات البلد  
الكبيرة لكنهم رجال اصحاب قاموس .

وأحست العروس بتعلق غريب بالحاطب الشاب ، فهي تعرفه من قبل  
فقد تحدثت اليه على طريق ( الكوم ) في مواسم الورد ، وفي حقول الحصاد وفي  
مناسبات كثيرة غيرها ، وكان يستوعب انتباهها أما الآن فانها بدأت تشعر بمخفقان  
قلبا وتورد وجنتها على غير ما عهدت من قبل ، وأحست كلما غمزت رفيقائها من  
« العمكري » بأنها كانت تزداد اعتزازاً بالطربوش الأحمر والأزرار  
الكبيرة الصفراء .

اما هو فقد كان يباهلها اعتاماً باهتمام وشوقاً وشوقاً واحس بالصرع  
الحفي بين حنينه اليها وبين تصميمه على ان يظلي جندياً .

وأخذ يتحرى أوضاع رفاقه في الخدمة بشيء من الحذر والحياء ، علة  
يستطيع ان يوفق بين العروس وبين البذلة .

واحس بالطمأنينة عندما تأكد لديه ان اكثر رفاقه متزوجون وان  
راتب المتزوج هو دائماً أكبر من راتب مثله العازب ، وانه يسمح لهم بان  
يعودوا الى بيوتهم ليلتين او ثلاثاً في الاسبوع ، وان للعسكريين تعاونية تقدم  
لهم المواد الغذائية والملابس والكماليات الصغيرة بأسعار متواودة .

وهكذا بدأ يحس بالسعادة تغمر نفسه .

وبالغد المشرق ينتظره باسم ، غنياً بالأمل .

ومن ثم اخذ يزداد حماسة لمهنة الجديدة .

\* \* \*

ولم يكن حمد ذهاب جندياً نظامياً في كتائب جيش الشرق الذي بدأت  
فرنسا بتشكيله في سورية عقيب ميلون والذي كان يضم عدداً كبيراً من  
الشباب السوريين والبنانيين العاطلين عن العمل والذين خربت بيوتهم الجماعات  
والحروب والمصادرات او الذين تستهويهم الحياة العسكرية فقد كان صغير السن  
لا يستطيع تحمل اعباء الجندية الشاقة لذلك الحق بكثنية التموين وخصصت له  
عربة يجرها زوج من البغال الضخمة .

كان حمد واضح الاعتراز بعربته ذات العجلتين العاليتين وكان عندما  
يسك باعنة البغلين وهو جالس على المقعد المرتفع ، لايتم كثيراً بالسوط المعلق  
الى جانبه فقد اعتاد ان يكتفي بنبقات صوته وبتحريك السيور الجلدية بعنف  
او بهدوء حسب متطلبات السرعة او البطء .



و كثيراً ما شعر حمد بأن الناس في طريقه بين المعسكر والمدينة ينظرون إليه نظرات غريبة ، ولم يكن بادئ الأمر يتم لنظراتهم ، ولكنه بدأ مع الزمن يتساءل :

— لماذا ينظرون الناس إلي هكذا ... صحيح أن الطربوش يكاد ينزلق حتى أذني ... وان البذلة تكاد تكفي لشخص آخر معي ... ولكن .. وأحس حمد أن زيه المستغرب وحداثة سنه وضآلة حجمه بالنسبة الى العربية للضخمة أحس أن ذلك يسترعي الانتباه إلا أنه في أعماق نفسه راح يفتش عن سبب آخر . وبدأ بتكشف شيئاً فشيئاً سر النظرات الغريبة التي كان بعض الناس يرمونه بها .

فقد كانت المدينة من حين الى حين تضطرب فيمنع الجنود من الاقتراب منها ويحجز عليهم في معسكراتهم ، ولا يسمع الا لمفارز من السنغاليين والمفلاش للقيام بدوريات في أطراف المدينة وأحياناً لا يتورع قوادهم عن التغلغل بهم نحو المدينة وعندئذ تقفر العاصمة الكبيرة ولا يسمع في الشوارع إلا وقع أحذيتهم ذات المسامير الضخمة وبعض الطلقات النارية تدوي رهبة متقطعة وفي كثير من الأحيان كانت هذه المفارز تتعرض في بعض المنعطفات أو الأحياء المغلقة أو بالقرب من بعض المدارس الى مضايقات ، هتافات معادية وقذف حجارة ، وتظاهرات تتفرق هنا لتجتمع هناك .

وكان حمد ، عندما يتاح له ان يصل بعربته الى سوق الهال ليحمل منه الخضار والارزاق الى المعسكر ، كان يسمع من حين الى حين عبارات ووشوشات خيل اليه بادئ ذي بدء انها الغاز ، او اصطلاحات تجارية ، ولكنه مالت ان

بدأت الأمور تتجلى لعينيه وذهنه أكثر وضوحاً ، فلقد بدأ يعرف ان المدينة  
تكره العسكر .

وان الاضطرابات التي تقوم فيها من وقت لآخر ما هي الا بسبب وجود  
اولئك الجنود في المعسكرات المحيطة بدمشق .

ولم يحاول ان يسأل عن اسباب هذا الكره ودوافعه ، فقد احس في  
أهراق ذاته ان مثل هذه الاسئلة لا تطرح على ائاس لا يعرفهم ولا يعرفونه .

وجرب أن يتصل ببعض أبناء بلده القادمين من الجبل ولكنه فلما كانت  
تتاح له فرصة الوصول الى حي الميدان وباب الجابية حيث يترددون ، أما المنطقة  
المطلة على طريق بيروت ومعسكرات المزة فلم تكن تثير فضولهم ولم يكن هناك  
أي عمل أو مصلحة تحملهم على ارتيادها .

واخذ يربط بين حادثة ادم خنجر منذ سنتين واضطرابات المدينة  
وكرهها للعسكر المحيطين بها ، فقد كان في السويداء عندما سبق من القرية الى  
القلعة تحت حراسة مشددة شخص غريب عن الجبل ، قيل انه من جبل عامل ،  
وانه رئيس عصابة حاول اغتيال الجنرال في جهات القنيطرة .

وانه جاء لاجئاً او ضيفاً على دار سلطان في القرية وان الباشا كان غائباً  
آنذاك ، وعندما علم بالامر ، عزّ عليه كثيراً ان تلقى السلطة القبض على ضيفه  
وحاول ان يتوسط الامر ولكن الحاكم لم يقبل الا بتقل الاسير ببطائرة  
الى دمشق .

ونار سلطان لادم ولشرف داره ، رابط مع بعض خياله وهاجم ثلاث  
مصفعات احرق اثنتين منها وقتل الليوقتان الفرنسي وانسحب الى الجنوب نحو  
الاردن مع عياله وبعض رفاقه ومواشيهِ ، تاركاً داره وغلاله طعماً للنيران .

وتذكر حمد ان حاكماً فرنسياً قد حل في السويدة محل الحاكم المحلي ،  
وان الناس ، ايضاً في الجبل بدأت تنذر من قسوة الحاكم واستبداده .

وأخذ حمد يصل الى استنتاجات شخصية بدأت تشغل باله وتقلق نومه .  
فلماذا تظل المدينة الكبيرة دائمة الاضطراب وهي تبدي كرمها للجنود ؟ ..

وخيل لحمد ان المدينة تكره العساكر بسبب عوامل دينية او عنصرية  
ولكنه لم يقبل بهذه الفرضية ، فالجنود اكثرهم مسلمون من البلاد ومن المغاربة  
الشديدي الدين وهم خليط من اللهجات والاجناس وفي المدينة ايضاً لهجات كثيرة  
واجناس كثيرة بدو وحضر وأرمن وأكراد وشراكس ...

وتمكن حمد بالفطرة ان يدرك تدريجياً ان المدينة الكبيرة تكره الجنود  
هؤلاء الذين يخدمون دولة اجنبية دخلت البلاد بالقوة وفرضت عليها حكماً غريباً  
وانظمة لم تألفها وبدلت الذهب بأوراق ملونة ...

ومع الزمن بدأ يحس بأن حماسه للمهنة الجديدة بدأت تخف وتطلعه الى  
العودة يزداد يوماً بعد يوم .

وجرب ان ينسب هذا الشعور الجديد الى شوقه لأهله وللعروس في محاولة  
منه لاذكاء الهمة التي بدأت تفتقر والامال التي بدأت تنكمش ، الا انه لم يجد  
في هذه المحاولة تعزية ، ولم يلبث ان اقنع نفسه بأن هذا الشعور اشد عمقاً واغوى  
من عاطفة شوق او حنين لمسقط رأسه وأخذ يفكر فعلاً ويجدد لنفسه الزمن الذي  
يستطيع ان ينهي فيه ارتباطه مع الجيش بحجة او بأخرى واحس انه سوف  
يقوى على اندفاع الشباب وطموحه فلا يوقع عقد التطوع المقبل كجندي محترف .

وشعر بالطمأنينة لهذا القرار واخذ ينتظر نهاية العام وهو يغالب بقايا  
نزعته في نفسه تعكر عليه بين الحين والحين هدوؤه واستقراره .

وراح المتطوع الصغير منذ اوائل الصيف ينتظر نهاية العام ليضع حداً

لهذا الاضطراب النفسي الذي بدأ يؤرجحه ذات اليمين وذات الشمال ويرسم أمامه المستقبل في صور متناقضة مشوشة مؤرقة ، غير انه لم يكن يعلم بأنه كان على ابواب مغامرة طوبلة مثيرة قلبية .

فقد تردد ذات اصيل في المعسكر بوق التجمع ، على غير عادة ، فتراكض الجنود وهم يتحسسون احزمتهم وازرارهم ويضربون احذيتهم بقطعة قماش اخرجوها من جيوبهم في محاولة لنفض ما علق على تلك الاحذية من غبار واصطفوا في رتل احادي طويل بعد ان تلمسوا طرايبشهم الحمراء المغضنة ووقفوا وقفة الاستعداد ، بلا سلاح .

وخطابهم القائد بلا مقدمة :

- غدا صباحاً تطلق قافلة التموين الى بيروت لنقل الارزاق ، اسلحتكم معكم . مفهوم ؟ وضرب الرجال الارض باقدامهم ضربة قوية واحدة ، دون ان تهتز لهم شفة او جفن وانصرفوا مسرعين في شبه فرضى وهم يصرخون صرخات فرح مكبوتة .

كانت بيروت بالنسبة لمن يعرفها منهم مجموعة من الذكريات يزيد بها الزمن والبعد فالقاً وحلاوة ، اما الذين لا يعرفونها فقد فجع هذا النبأ المفاجيء لهدفاً عارماً بدا على اسارير الرجال وفي وثباتهم الخفيفة المرحية .

امرع حمد الى الاسطبل يتفقد بغليه وعدتها وطعامها ، ومن ثم انطلق الى عربته يحمل في يده علبة اخذ يتناول منها باصبعه شيئاً اسود لزجاً ويدهن به محور العجلة .

وعندما اطمان الى ان كل شيء جاهز ، قفل راجعاً الى مهجته وتناول بندقيته الافرنسية الطويلة ، وراح بنظفها ويلمعها بكل هدوء ثم عاد الى ذخيره

يتفقدنا والى امتعة نومه يتأكد من لياقتها ، فقد اخبره رفاقه من قبل ان يبيوت  
هي على ثلاث او اربع مراحل من دمشق .

وعندما دق البوق في المعسكر معلنا اطفاء الانوار كان حمد لا يزال في  
ثيابه الرسمية وخيل اليه ان ينام دون ان يبدلها ، الا انه عاد فامرع يخلعها ،  
والقى برأسه على مخدته الحشنة ولف جسمه ببطانية مزدوجة رغم بشائر الصيف ،  
وقد علمته التجربة ان ليالي المعسكرات المنتشرة فوق روايي المزة تزداد في المزعج  
الاخير برودة شديدة الابداء .  
وحاول ان يغفو .

اغض عينيه ومد ساقيه في حركة استرخاء ، مصطنعة ، ولكنه بدلامن  
ان يستسلم للنوم استسلم الى خيالات وصور متعاقبة متدافعة ، مشوشة حيناً  
واضحة احياناً ، ترسم فيها بعض احداث الماضي ، وتختلط في اكثرها رؤى  
مستقبل متوجرج مثلما تترامى اخواء مدينة غربية بعيدة في غلالات الضباب  
الدائم الحركة .

لم تكن هي اليلة الاولى التي ينتابه فيها الارق ، الا انه احس انه خير  
له ان يفتح عينيه ويكوم جسمه الناحل وينتظر تباشير الصباح بدلاً من ان يظل  
يرهق نفسه في التقلب من جنب الى جنب على مجذ في هذه الوضعية او تلك سيلاً  
لاغفاءة مرجحة .

وكان المجمع الكبير ، على غير عادته من السكون الرهيب ، فقد بدا  
واضحاً ان قسماً من الرجال يغالبون الارق ، فقد كانت الامرة الحديدية الضيقة  
تصر بين الفترة والفترة عندما يتقلب الجسم الممدد فوقها من جنب الى جنب .

وقبل ان يدق بوق الاستيقاظ ، كانت الحركة قد دبّت في المهاجع واخذت  
قعقة السلاح الحافطة ووقع الاحذية الضخمة ومهمة الجنب ود تسمع ، ومن ثم

تدافع الرجال نحو عرباتهم وبغالهم يسابق بعضهم بعضاً وفي عيونهم حمرة من ارق وفي حركاتهم تناقل من عياء .

واصطفت العربات الفارغة الا من بعض الزاد والافطية بسرعة مذهلة ووقف كل واحد متشبهاً بعنان بغله بيد وممسكاً بالآخرى بندقيته وقد تدلى على جانبه غمد لحرية طويلة .

كان التفقد طويلاً مملأً، وربما بدا كذلك ، ولكن الامر بالمسير ماعتم ان دوى فتعركت القافلة الطويلة ببطء الا انها مالبت ان سارت بشيء من السرعة والنظام يواكبها ضابط وبعض ضباط الصف فوق خيول مهجنة وسيوفهم تلمع في ضوء الشمس التي بدأت تغمر بأشعتها رؤوس التلال .

وسارت بشيء من التناقل سيارتا شحن احدهما في المقدمة والثانية في المؤخرة وفيها عدد من الجنود يدوسون باحذيتهم الغليظة اكروماً من الحزم الصغيرة . كانت التلال العالية الجرداء تنتصب حادة موحشة على جانبي القافلة إلا ان وشوشة النهر حيناً وهديره أحياناً وحفيف اوراق الحور والصفصاف والشمش كانت تضيئي على الجو شيئاً من البهجة في حين كان بعض الفلاحين في بساتينهم أو في طريقهم الى المدينة يرددون ابيات العتابا يقطعها بين الحين والحين صوت بجث الدابة على الاصراع .

وسمع للجنود بالتدخين والغناء، فانطلق دخان السجائر ازرق شفافاً يتلاشى في الفضاء الصافي اللامتناهي ، واختلطت اغاني الشعوب اختلاطاً مثيراً متافراً ، فقد كان الرجال من اجناس ومناطق شتى ، من الهند الصينية وشرق افريقيا وغربها وشمالها ومن فرنسا وسورية ولبنان . مجموعة من البشر كانت في كتاب التمرين اكثر تعدداً في اجناسها ومذاهبها واوطانها وألسنتها واشد تافراً في قاماتها ولون بشرتها وقسمات وجوها ، واعمق تناقضاً في اخلاقها ، ومشاربها ، إلا انها

كانت جميعاً تنقل الأرزاق والمؤن لجيش الشرق ، في زي ونظام عسكريين ، ولم يستطع الا اقلهم ان يرتفع بتفكيره من المستوى المادي للحياة اليومية فقد كانوا جميعاً شبان فقراء اميين في بلاد غلبت على امرها فالتمسوا العيش متطوعين او ارغموا على الخدمة بموجب قوانين التجنيد النافذة في المستعمرات وقل منهم من احس بارتباط هواية جارية او احتراف محبب .

كان اولاد القرى بسر او يلهم وقصان نومهم الفضفاضة ، وطاقياتهم البيضاء ، وجعب القماش المزركش المدلاة على جوانبهم ، يبرز منها لوح حجري او كراسية مفتولة الصفحات كانوا يلوحون بايديهم للقافلة ببراءة الاطفال وفضولهم ، في حين كان الرجال يلقون عليها نظرة ازدراء خاطفة ، بينما تلتف النساء والبنات بمآزر ملونة يلتصمون بها ويتأملون القافلة طويلاً من خلف المشرييات او جذوع الاشجار بعين واحدة أو بكلتيها .

وبدأ النهار بضافه الكثيفة الخضرة يتتعد بسرعة واخذت حدة الجبال المرتفعة تخف وتلاشي ، والهواء يزداد سخونة والطريق خشونة وتصعباً والغبار كثافة واصفراراً ، وراحت البغال تنصب عرقاً لزجاً والرجال يجثمون من حرارة الشمس المرهقة بنخعية رؤوسهم بمحارم يدخلونها تحت طرايشهم فتتدلى اطرافها على آذانهم واقفينهم .

وانقطع الغناء ، وبدأ الرجال يحثون بغالهم بالسوط يفوقع في الهواء بصرخات جافة رثية :

ديي . . هوس . . . ديي . . .

وبدأ فجأة امام القافلة نجد عار منبسط ، احست معه العربات الفارغة بشيء من الراحة والنشاط فاندفعت متلاحقة ، في حيوية ظاهرة تزيد في فترات نادرة بوق سيارة غورد تملأ الفضاء غباراً وهديراً ، وقد التفت ركابها رغم الشمس

المهرقة بأغطية يتقون بها سحب الغبار المهيمة خلفهم وعلى جانبيهم .  
وفي نهاية ذلك النجد المتبسط ، الذي عرف حمد فيما بعد انه صحراء  
الديماس بدأت الطريق تهبط وتتعرج وتضيق بشكل خطر وكان على الرجال ان  
يظلموا على غابة من الحذر واليقظة ولا سيما عندما تقبل ، وتادراً ما تقبل سيارة شحن  
عسكرية او سيارة ركاب صغيرة تراكم فوقها التراب وتدافع من مقدمتها بحجار  
كثيف وصوت غليان الماء مختلطاً بهدير المحرك الاجش .

وعندما بدأت الطريق تصعد من جديد في الجبال المنخفضة الجرداء احس  
الرجال بالجوع خفتا ولوا بعض ما في عربلتهم من زاد وراحوا يلتمسونه بلا شبهة  
وبشربون وراء كل لقمة جرعة كبيرة من ماء فاتر .  
طريق يمل موحش عار وشمس محرقة وغبار وعرق وعربات تتلاحق بشيء  
من الكسل والتراخي .

وفجأة رفع الضابط رئيس القافلة جسده قليلاً فوق المسرح ولوح بيده  
وصرخ بكل ما في صوته من قوة وحدّة :  
هالنت ...

توقفت العربات ، واخذ الرجال يتعسّون اسلحتهم ، وتراكم ضباط  
الصف ، فتقدم الرئيس وأشار الى سهل واسع مكشوف اشارة دائرية واعطى  
امره بالاستراحة ونصب الهيم .

فلحق الرجال الى الارض واخذوا يجرون بغالهم بالاعنة الى السهل المصاطب  
الطريق ودبت في القافلة حركة خفة وقرقرة مألوفة ان خفت شيئاً فشيئاً وانتصبت  
في ذلك للسبل الصغير مجموعة من الحيام الصغيرة تحيط بها في شبه دائرة عربات  
جائفة ربطت الى جوانبها عدد كبير من البغال ادخلت رؤوسها في اكياس العلف  
بعد ان ارتوت من جدول صغير ينساب في خندق ضيق على جانب الطريق .



كان الوقت اصيلاً ، فانتشر الرجال يجمعون من ذلك السهل ما يستطيعون جمعه من اشراك وعيدان جافة لتهيشة الشاي والاصطلاه ، فقد بدا واضحاً ان الليل سيكون قارساً في هذا النجد المكشوف الذي تحيط به التلال المرتفعة وتطل عليه قمم جبل الشيخ بغطايا بقايا ثلج بسطع تحت اشعة الشمس في مزيج من ارجوان وبلور .

تجمع كل جنس من تلك القافة في حلقة صغيرة او كبيرة وعلا اللفظ والمهممة وانطلقت الايدي تلوح في الهواء معبرة عن طلب او خبر ، وعندما اقبل الظلام كانت دوريات الحراسة قد وزعت والنيران تشب وتحمد هنا وهناك واكواب الشاي تلمع وتسطك .

وحاول حمد أن يعتزل رفاقه لا كرها بهم وإنما لاعتياده العزلة ولشعوره بشيء من الحرج والارتباك في مثل تلك الاجواء التي ينطلق فيها الجنود على سجيتهم يروون مغامراتهم وتجاربهم دون أي تورع أو تحفظ . الا أن صديقه الكابورال محمود دعاه الى حلقة في ما يشبه الأمر :

— تعال هنا يا ولد العرب . . .

وأكد عليه في حركة صريعة من يده بدت على ضوء النار وكأنها اشارة ساحر فتقدم حمد بلا وجل وجلس يشرب الشاي القاتم وبعضه بشيء من الاهتمام الى أحاديث الرجال ، وكانوا جميعاً عرباً من شمال افريقيا تغلب على لسانهم تعابير من الفرنسية المشوهة وفي لهجتهم حدة ترص الألفاظ وتشد على بعض المقاطع شدا تخفي معه المقاطع الأخرى ، الا أن حمد استطاع ان يستوعب بشيء من الجهد كل ما دار في تلك السهرة الطريفة الخاصة من أحاديث . بعضها جدي واكثرها ماجن رخيص .

ولم تطل هذه السهرة الفريدة كثيراً فقد بدأ الرجال ينسحبون واحداً

واحداً إلى خيامهم ولم يبق سوى الكابورال والفنّي الجبلي الذي اعتاد السهر والاصغاء باهتمام الى احاديث المضافات والسمر حتى ساعة متأخرة من الليل حول شاعر يغني على الرابطة اشعار البداوة وطرائف اخبار الحب والحرب .

اشعل الكابورال محمود سيجارة من عود يحترق وقدم لزميله الشاب سيجارة أخرى ولكنه اعتذر باقتضاب ، فاعادها الكابورال الى علبة الصفيح الصغيرة التي يحملها ، وتناول قبضة من العيدان الجافة ورمى بها فوق النار التي بدأت تنجو فتوهجت في هدأة الليل دائنة منيرة ثم ألقى بعض الاعشاب الخضراء التي كان قد جمعها بنفسه من السهل فعبق الجو برائحة عطرية منعشة ، ونفت دخان سيجارته عدة مرات متلاحقة ثم ستمر عينيه طويلاً في رفيقه الشاب ، فأحس حمد برعشة خفية تهزه هزاً ولم يستطع أن يتأكد في ما اذا كان مصدر تلك الرعشة هو تلك النظرة الرهبة التي زادها تألق النار وتموجها غرابية ونفاذاً ، أو أنها كانت نسمة قارسة جعلته يرفع قبة معطفه بغطي بها أذنيه ويلتزم بها في محاولة لاختفاء اصطكاك أسنانه المفاجيء .

وانطلق كابورال محمود بنتم :

- اسمع ياامي احمد ، أنت دخلت العسكرية من أجل الحبز ، أو من أجل البدة لكن كابورال محمود أخذوه بالقوة من بين يدي أبيه وأمه ، ليخدم العلم . . . علم الدولة التي احتلت بلاده منذ اكثر من تسعين سنة . . .

وعاد بنفت دخان سيجارته من جديد وهو يسمر عينيه في صديقه الشاب وكأنه يقرأ فيها الاثر الذي تركه في نفسه هذا الحديث المفاجيء . . .

وارتفعت نبرات صوته قليلاً وتابّع حديثه في عصبية ظاهرة وهو يجهد في اخفائها تحت ستار من الهدوء المصطنع :

- حملتنا باخرة كبيرة الى بيروت من ميناء وهران، مئات ومئات،ومن

هناك انتظمتنا مع جنود المستعمرات في حملة ضخمة سارت باتجاه دمشق .  
كان الشائع والمعروف بيننا أن الملك فيصل يطلب مساعدة الجيش  
الفرنساوي وأنه اتفق مع الجنرال الكبير على أن يعاونه هذا الجيش في حفظ  
أمن البلاد .

وسارت الحملة تتقدمها المصفحات وتحلق فوقها بعض الطائرات ، وعندما  
وصلنا إلى أحفل هذا الوادي ( وأشار بيده الى منطقة مظلمة عميقة ) بدأت  
المدفعية والطائرات تضرب بشدة باتجاه هذا السهل الذي نقيم فوقه ، وتقدمت  
المصفحات وأكثرنا لا يعلم من الأمر شيئاً ، وعندما وصلنا إلى هنا كانت بعض  
الجثث منثورة فوق السفوح ، وبقيابا أسلحة وعتاد وخيول .

ووقف الضباط يؤدون التحية لجثة تكومت فوق بقعة من الدم المتجمد  
وقد تدمرجت الى جانبها بقعة طويلة من الفرو في اعلاها باقة من ريش النعام  
الأبيض وعندما حمل القتييل فوق نقالة ميدان كان وجهه لا يزال وضاه مشرقاً  
والأوسمة تغطي صدره الملطخ بدم الممزوج بالتراب والحصى الناعمة .

وهناك ، في سفح التلة رفع النعش على أصوات أبواق حزينة وقمقعة  
وداعية من السلاح . . . وتناول كلورال محمود قبضة اخرى من الأعواد الجافة  
والشوك فتألفت النار من جديد والقت بعض ومضاتها ضوءاً خافتاً على البقعة  
القريبة المسورة الموحشة .

وتابع كلورال محمود وكأنه ينفس بهذا الحديث عن صدر مثقل  
بالذكريات المريرة والمكبوتة :

وهنا في ميسلون فهمنا أن الجيش قادم لاحتلال الشام وأن الملك فيصل  
هرب باتجاه فلسطين ، وأن كل مقاومة قد انتهت مع مقتل وزير حربية الملك ،  
وتفرق قوائمه التي كانت ترابط منذ ساعات في هذه السفوح .

ومن دمشق ، انطلقت القوات بمقاومة حينا وبلا مقاومة أحياناً نحو

الشمال والشرق .

وبقي عليها أن تدخل جبل الدروز . . .

ونظر الكابورال محمود نظرة عميلة فاحصة ليرى مدى اهتمام سميره ، فلم يستغرب أن يراه وقد تحول الى كتلة من الانتباه والتلف وقد ارخى معطفه عن أذنيه وشبك يديه فوق صدره على طريقة أولاد الكتاب :

— وعلمت في ما بعد لماذا تأخر الفرنسيون سنة كاملة بعد ميلادهم قبل أن يرفع علمه فوق قلعة السويداء ويخصص لمراسمه صرية واحدة فقط من الجيش . أنت ابن السويداء ، وأنا أعرف أنه يعز عليك أن أمس شعور أولاد بلدك ، ولكن معيش . . . هل تسمح لي أن أكمل حديثي .

هو حمد رأسه علامة الموافقة دون أن يختلج له جفن أو شفة وتابع الكابورال :

— كان من أولاد بلادي ليوتان أحمد ، رحمه الله وكنت في فترة من الزمن مرافقاً له وكان يحدث بقسوة وشجاعة عن الحكم الفرنسي . وسمعتة مرة يحدث عن الجبل :

— بلاد رجال أشداء ، فرسان ، عشاق للحرية والكرامة ، جيلهم وحده عصي على العصملي بالدم والبارود .

فرنسا لم تستعمل في كل تاريخها الاستعماري الحيلة والدهاء الا في دخول تلك المنطقة المجهولة بالدم ، قالت للزعماء مالنا ومالكم انتم حكام في بلادكم ولكم حربة المعتقد والعادات والتقاليد والادارة ، لانطلب منكم الا ان تسمحوا لنا برفع العلم الفرنسي رمز الصداقة بيننا وبينكم وتسمحوا باقامة حامية لا تزيد عن المئة جندي لحراسة ذلك العلم .

وفي الخفاء مد بعض زعماء بلادكم وقبضوا الذهب ، والمناصب ، والوعود وآخرون استسلموا للواقع وقلائل ادر كوا الفع المنسوب . . .

ولكنهم لم يستطيعوا ان يحملوا الناس على حرب خامرة بعد ان احتل  
الانكليز الاردن وفلسطين والعراق والفرنساوي سورية الداخلية والساحلية .  
ولعت عيناه يبريق غريب ، وانتصب فجأة وهو ينظر الى ساعته :  
- بلادكم على فوهة بركان ، بالامس حادثة ادم خنجر ، وغدا دماء  
وخراب وتشرذم ... .. ورأس سيدي عبد القادر ...

اقرب موعد تفتيش الحرس ... تصبح على خير .  
وقفز مسرعاً وهو يتحسس مسدسه ، في حين ظل حمد وكأنه قد سمر في  
مكانه برهة من الزمن لم يلبث بعدها انلقى على النار حفنة تراب وانسحب الى  
اقرب خيمة يلف نفسه بالبطانيات التي كان يجلس فوقها ، ويصنع من حذائه  
ومعطفه مخدة ، ويستسلم الى نوم عاجل ، ساهم ارق الليلة الماضية وغناء النهار  
والارهاق الذهني في جعله عميقاً ثقيلاً .

## الفصل الثالث

نهض حمد متاثلاً في الصباح وهو يتحنى على غير عادته لو سمع له ان  
يسلم من جديد الى النوم ، واحس لأول مرة ، وبعمق ، قسوة النظام  
العسكري .

وعندما راح يهيم عربته للرحيل الوشيك ، كان شارد الذهن ، مرهقاً  
منقبضاً .

نحركات القافلة ، ونحرك معها حمد ، وقد اختلطت وتدافعت وتشابكت  
في رأسه صور كثيفة دامية ، اضى عليها السهل المقفر الحزين والقبر الفريد  
المهجور جراً من الحشوع الرهيب .

وسارت القافلة في صمت وكأنها هاربة من ذكريات تضغط على حناجرها  
بيد متعلبة باردة . وما لبثت الطريق ان بدأت تتحدر انحداراً خفيفاً وتتلوى  
منعطفتها المتعددة المتلاحقة ، تسدها من جهة سفوح التلال ، وتفغر على جوانبها  
الوديان السحيقة افواهاها الجافة في انتظار فريسة وشبكة الوقوع .

وصاد السكون والبطء وسحابة من خوف ، يقطعها بين الحين والحين  
تنبهات مشددة من صف الضباط الذين كانوا قد توزعوا على طول القافلة .

وبدت الطريق في اسفل الوادي منبسطة وان ظلت متعرجة نحو شرعان

الجانبين جبال عالية ، وكنصب كأنها جدران به اسطوري .

توقفت القافة في مدخل الوادي ، وادي القرن ، الذي اخفى عليه قطاع الطرق والماربون من وجه السلطة شهرة رهيبة ، والذي بدت كهوفه وصخوره والشجيرات القليلة المعلقة في الهواء ، وبعض الغربان والنسور المحرمة في اجوائه والظلال التي كانت تخمره ، آنذاك مظلمة شقافة .

بدت جميعها توحى بالوحشة والقلق .

اعطيت تعليمات جديدة فعمّر الرجال بنادقهم ووضعوها فوق ركبهم ونهروا بغالهم بلاحماية وانسابوا في الوادي الرطب في صمت وترقب ، وتلاحقت العربات بشيء من السرعة كأنما هي تحاول ان تفلت من هذا الوادي الرهيب .

وفجأة برز سهل اخضر قصير المدى كأنه واحشة الرجاء وظهر الافق ضيقاً على الجانبين الا انه كان ارحب من شريط السماء المتعرج الذي كان يجثم فوق الوادي كسقف من الزجاج الازرق الشفاف وعادت القافة من جديد تنساب في واد آخر ، اكثر انحداراً الا انه كان غنياً بالاشجار الصغيرة المتشابكة والزهور البرية ، ترتقي في جنباته وتعلق بشجيراته بعض قطعان الماعز فون سفوح اقل حدة ، وتسمع فيه زقزقة العصافير التي بدأت تهجر اعشاشها .

وبدا حمد يستعيد شيئاً فشيئاً نشاطه وحيويته ، واخذ يشعر في احماقه وكأنه بدخل في عالم سعري مشوق ، وراحت ابيات العتابا تجيش في حنجرته الا ان فمه ظل مطبقاً وعيناه لتتقلان باعجاب واستغراب بين السفوح العارية احياناً والمكدوة غالباً باحراج قزمة الا انها متشابكة تتخللها بعض البقع الملونة .

وعندما اطلت القافة على السهل المستند الى الجبال الهائلة البعيدة والتي تسد الافق جهامتها المكلفة بالثلوج ، استعاد الرجال انفاسهم وانطلقوا على سجينهم

في فوضى من اللسان الغربية ، وانطلقت العربات تطوي الطريق المبسط في ظلال اشجار الصفصاف الوارقة .

اخذ حمد يتأمل بعينه وبذهنه ذلك السهل الاخضر المنموج ، انه يشبه الى حد كبير سهول حوران ولكن الاشجار هنا والوان السطوح والجدران وكثافة الزرع وتوزيع الجداول وانعدام التخوم والرجوم بين الحقول والنظرة الأولى المفاجئة كل ذلك كان يعطي لسهل البقاع في نظر حمد شعرا لم يشعر بمثله في سهول حوران رغم اتساعها الهائل وجودة غلاتها في سنوات الخير .

وما كادت القافلة تجتاز قرية شتورة حتى امرت بالتوقف والالتخيم، وسمع للجنود بارتداد سوق البلدة جماعات جماعات على ان يعودوا الى الخيم عندما تختفي اشعة الشمس عن قمة جبل الشيخ الذي كان يبدو معمماً بالثلوج خلف سلسلة طويلة من الجبال الجرداء المقفرة الا من بعض القرى الصغيرة المعلقة كأعاشاش النور او بعض قباب الاولياء البيضاء .

وفي المساء عاد بعض الجنود مخمورين فلم يفعل الضابط شيئاً سوى ان يوصي رفاقهم بالاعتناء بهم ، في حين انصرف الباقون الى تهيئة العشاء والشاي بشيء من الفنور .

وفي الصباح انطلقت القافلة من جديد مصعدة هذه المرة في منعطفات متلاحقة ترتفع حتى السماء .

وفي الساعات الاولى بدأ التعب والجهد واضحين على الرجال والحيوانات جميعاً ، حتى راحت العربات نفسها رغم ضآلة حمولتها قصر وعجلاتها تثن ايناً متلاحقاً ، وبدت الوديان صحيفة رهيبة والقمم تزداد شموخاً الا ان الطريق كانت تؤنس بين الحين والحين قرية قريبة او باقة من اشجار حقل يتأوج زرعه أو سيارة تهدر ببطء ، أو فلاح خلف حماره ينشد أناشيد ابو الزلف والميجنا .



وعندما وصلت الغافلة ظهر البيدر كان العرق يتصبب منها رغم النسيمات الباردة والقارسة أحياناً .

وقابعت السير بعد استراحة قصيرة وبدأت تنحدر قليلاً على حافة الوديان وعند الاصيل كانت تتوقف في فسحة من الارض ضيقة مجتئها الجبل وتدرج حولها السفوح مكسوة ببعض البساتين والزرور ، وتفرج زاوية منها لتطل على غابات هائلة من الصنوبر تتناثر في ظلالها عشرات القرى بقرمبها الاحمر وطرقاتها المتعرجة .

شدت الاوامر الاحتراس من البود ، والثلوج ببدو من ثنابا الوديان كثيفة وقريبة في حين كانت الجداول تتفرق تحت أقدام الهيم وتدر في شلالات صغيرة متعددة ومتلاحقة .

حاول حمد ان يستعيد الصور الغربية للرائعة التي مرت أمام عينيه في ذلك النهار الا انه أحس بأنه يستسلم الى النوم الهادئ استسلام الطفل .

ومع شروق الشمس استؤنفت الرحلة ، في جو شاعري لم يسبق لحمد أن يتمتع بمثله في يوم من الأيام .

وديان متقاطعة تكسوها الخضرة حتى قمم التلال ، وسفوح مندرجة ومياه متدفقة وقرى على غاية من الجمال والنظافة ووجوه باسمة وردية ، وجبال تمد الفضاء ببياض قممها للعاجي وتحت أقدام الأفق البعيد امتدت زرقة لا متناهية شبه زرقة السماء ولكنها ليست منها . انه البحر ...

آه ، كم كان شوق حمد كبيراً لرؤية البحر ، اما بيروت فقد كان يتصورها مدينة مثل دمشق ، فلم تكن لذلك تثير في نفسه ذلك الشوق العارم . وفي الطريق الى بيروت كانت القرى تتقارب وتتباع ، ويتصل بعضها

بعض تنتثر حيناً باقات من ورد على رؤوس التلال بين المظلات الصنوبرية الخضراء المتشابكة ، وتجمع أحياناً متدرجة فوق السفوح او على شفير هاوية سحيقة ، أو في أحضان الوديان الضيقة بين مساطب التوت القزم ، وحقول القمح الضيقة النادرة وكان الناس يبدون في أزباء شبيهة بالأزباء التي تعود حمد ان يراها عمائم ومناديل بيضاء ، وشراويل ، وطرايش ، وقبعات . . . الا انه استطاع ان يلاحظ ان الناس هنا يبدون أشد اهتماماً بظهورهم واكثر بشاشة .

وقد كر حمد ان والده عباس ابو ذياب قد هجر قريته وهو في مثل سنه للعمل في حوران حجاراً ، وان الظروف والمهنة جعلته يستوطن السويداء ويبني لنفسه فيها بيتاً متواضعاً ويسلو مع الزمن أهله وقريته المطلة من بعيد على بيروت . ولم يحاول حمد أن يتعرف الى قرية والده وأجداده ، فلا نظام القافلة يسمع ولا هو أحس اليها بعنين المهاجر العائد .

وفي المساء كانت للقافلة تدخل للشكنة بعد ان تأخرت قليلا لاصلاح بعض عرباتها وأعطى الجنود حرية التجول ، بلا سلاح في المدينة ، منذ الصباح الباكر وحتى التاسعة مساء دون أي تفصيل ذي أهمية .

كان الموج يتدافع على اقدام الصغور الحشنة ويندفع رذاذاً من بين ثقبوها عندما وقف حمد بعيداً يرقب حركاتها في اهتمام وبشيه من الوجمل .

كم كان يتمنى ان يجلس على صخرة من تلك الصغور الناقثة يغمر قدميه بالماء ويسبح بنظره حتى الأفق حيث تختلط السماء بزرقة الماء المتعوجة .

لم يكن حمد جباناً ولكنه احس بأنه لا يملك الشجاعة الكافية حتى على الاقتراب من صغور الشاطيء ، وفضل أن يتعد وأن يتابع مسيره نحو المدينة وعيناه للاحقان حركات الموج التي لم تكن تهدأ وبعض الطيور الكبيرة البيضاء والمراكب التي كانت تبدو في عرض البحر .

وأعجبه منظر رجل يقف على رجل واحدة أحياناً تقعر المياه المتدافعة  
قدمه العارية والى جانبه سلة من قش ، وفي يده قصبة طويلة تدلى من رأسها خيط  
يلمع تحت أشعة الشمس ويرفع بين الحين والحين سمكة تتراقص في الهواء ولا  
تلبث ان تغيب في قعر السلة .

وأدهشه صبية يلبسون شيئاً ضيقاً يسترون به عورتهم ويقفون فوق خشبة  
قليلة الارتفاع يقفزون ، اقدمهم في الهواء وأكفهم المضمومة تشق سطح الماء ،  
في حين تمدد بعضهم يستريح فوق تراب اصفر لا يعلق بالجسم ولا يلوثره .

وقادته قدماء الى الميناء فاتكأ على حاجز خشبي زمناً لا يدري كم طال ،  
وراح يتأمل البواخر الضخمة والمراكب الخشبية والاعلام وتلال الفحم الحجري  
والشبان ذوي البدلات البيضاء ولاشرطة الزرقاء والآلة الضخمة التي كانت تحمل  
من المراكب الى عربات القطار الجائئة فتحملها صناديق كبيرة قد لا يستطيع عشرة  
رجال أن يرحلوا ، وظل يفتش بعينه وبذهنه عن الطريقة التي تعمل بها هذه  
الآلة حتى اهتدى الى قفص حديدي في اعلاها شاهد من خلال كوته الزجاجية  
رجلاً جالساً يحرك اذرعة من حديد .

ولكنه لم يطق البقاء رغم ميله الشديد للبقاء فقد كانت الروائح المنبعثة  
من الميناء لا تشجعه على المكوث وقتاً اطول ، فعاد يتسكع في اسواق المدينة  
وشوارعها بلا هدف وبلا اهتمام .

وعندما وصل الى الشكنة بعد ان استدل مراراً ، كان جائعاً متعباً ،  
فاكل بسرعة وشهية واستغرق في نوم عميق في حين كان رفاقه يتوافدون بين  
مخمر متعنع او طرب مترنح او مغامر معصوب الرأس .

\* \* \*

توقفت في اليوم الثاني عربات ثلاث أمام بنـاية ضخمة ، وأمر الجنود الثلاثة بالنزول الى القبو البارد المظلم الممتد تحت جزء كبير من البناية .

وكانت تنبعث من القبو رائحة الخور تكاد تدبر الرأس ويزيدها عبـاً  
الأبجرة المتصاعدة من الدرج الواسع المنحدر نحو الظلام وقد بلله النبيذ المعتق .  
- احمل ..

صرخ السرجان ذو الوجه الاحمر والقامة القصيرة المكورة كأنها واحد  
من مئات البراميل المكدمة .

وهز حمد رأسه علامة الرفض دون أن يتحرك ودون ان ينبس بكلمة .  
- احمل ..

واشار الى برميل النبيذ في حركة عصبية ظاهرة .  
وظل حمد جامداً كالتمثال .

- احمل ... خنزير ..

واحس حمد بأن الأرض تمتد تحت قدميه وان الدم قد تحول الى جمر في  
عروقه وان الدنيا قد غامت في عينيه .

وفي وثبة جنونية كان يجثم على صدر السرجان وهو يستل خنجره المجدلاني  
الذي لم يكن يفارقه ، فتلعب بسمة الموت في نعله الرهيب ، غير انه بوعمي او بلا  
وعمي رمى بالخنجر بعيداً بين البراميل المكدمة فانطلق كالكوكب الهاوي في  
لية شفاة الظلام ، وعاد يشد بركبته فوق الصدر المتراخي والساعدين المرتجفتين .

- نعم أنا شهرت الخنجر على السرجان وليس صحيحاً ما يدعيه بأنه هو  
الذي قذفه من يدي ، لقد اهانني مرتين ، مرة في محاولة لارغامني على حمل مشروب  
محرم في مذهبنا ومرة ثانية بشتمي .

وتداولت المحكمة وكان الحكم بعد التخفيف السجن لمدة سنة .  
اقتيد حمد بين اثنين من شرطة الجيش ذوي القبعات السوداء الاسطوانية  
الى عربة مغلقة ، وعندما فتح بابها الخلفي ، وجد السجن الشاب نفسه في باحة  
واسعة تحيط بها الاسوار العالية المعدومة الكوى تنتصب وتندلى فوقها جبال  
وأكوام من الشريط الشائك يرتفع بينها من مسافة الى أخرى محرس خشبي يطل  
من كونه الضيقة رأس نجمد وحربة طويلة تسمرت بلا يريق وعلى الاسطحة كان  
يتنقل في حركة بطيئة حراس آخرون تتوهج حراهم في اشعة الشمس الدافئة .

جرد من حزامه وانتزعت اربطة حذائه وسبق الى ما يشبه المجمع الواسع  
وعندما اغلق خلفه الباب الحديدي وجد نفسه وجهاً لوجه أمام عدد من الامرة  
الحديدية الضيقة يرقد فوقها بعض الجنود بينما كان زملاؤهم الآخرون ينظرون بلا  
استغراب الى القادم الجديد .

لم يسلم على احد ولم يتدبره واحد منهم بالسلام وتقدم وكأنه يسير في  
الحلم نحو صرير رآه فارغاً فارتمى فوقه وهو يغالب دمة محركة اضطر ان يسحبها  
خفية بطرف كفه .

وعاد العشاء الذي قدم اليه دون ان تمسه يد ، وظل وهو يمدد بعدد دقائق  
الساعة البعيدة الكبيرة ويستمع بلا اهتمام الى هدير الامواج .  
وعندما كانت الديوك تعلن تبشير الضياء كان هو لا يزال يمدداً ساهراً  
فوق فراشه وكأنه قطعة من خشب .

واخذ واحد من المساجين يحاول اخراجه من صمته .

— من انت ؟ لماذا جاؤوا بك الى هنا ؟

ورويداً رويداً أخذ لسان حمد ينطلق متكئاً متجاهلاً في بادىء الامر  
الا انه سرعان ما انطلق يروي لزملائه اكثر مما كانوا يأملون ان يعرفوه ، كانوا

ثمانية وهو التاسع كلهم عرب من شمال افريقيا او من سورية الا واحداً يبدو من  
محتته انه من الشرق الاقصى وكان رفاقه يقبضون مهمة الترجمة بشيء من المشقة  
ويستعينون بكثير من الحركات تعويضاً عما يعجزون عن افهامه لجهل متبادل  
بكثير من المفردات والتعابير .

وبدا حمد يانس الهم ويأنون اليه ، ومع ذلك فانه كان يشعر دائماً بأنه  
مظلوم وانه لم يتعود ولا يستطيع ان يتعود هذه الحياة الكسولة المترامية  
المهرومة من نور الشمس والهواء والحركة والمرح ...

وكانت اشد ساعات سجنه ضيقاً ومرارة عندما كان يرغم على حمل نفايات  
السجن في براميل حديدية ضخمة يلقها في عربات الزباله ، وهو يرتجف غيظاً  
مخنوقاً .

ومرت الأيام وبدأ يزداد شعوباً ، بدأ لونه الاسمر يبهت شيئاً و شيئاً ،  
وضاعت معالم الزمن ، فلم يعد يذكر من ايام الاسبوع غير يوم الاحد اذ تمنح  
فيه فسحة اطول للتنفس وتجمع الثياب للغسيل .

واحس بالشتاء يقترب فقد كانت الغيوم تقراكم في السماء والمطر ينهمر  
غزيراً في فترات متقطعة ، الا انه لم يستطع ان يصدق ان يكون الشتاء بهذه  
النعمه ، فلا البود قارس ولا الرياح عاصفة تلمع وتدوي ولا السماء داغة النجم  
غير ان هدير الامواج بدأ يعلو ويزار بلا انقطاع .

كانت غرفة سجنه تستقبل بين الحين والحين ضيفاً جديداً او تودع واحداً  
او اكثر غير ان حمد اخذ يلاحظ ان عدد السجناء بدأ يتزايد وان بعض الاسرة  
قد ابدل بامرة ذات طبعين وان الحراسة ازدادت تشدداً وفسحات التنفس بدأت  
تباعد وتختصر .

وتساءل حمد مراراً بينه وبين نفسه لماذا لم يسأل عنه احد من أهله ؟ ولم يصدق الاجوبة التي كان يسلي ضيقه والمه بها ، فان السجن لا يخلو من وقت لآخر من زائر يحمل هدية او يلقى نظرة على قريب له من خلف الحاجز الحديدى السمج .

بدأ يقلق وبدأت الهواجس ترمم في ذهنه صوراً كثية مشوشة ولم تردها الايام الا تشويشاً وكآبة .

وسمع بعض السجناء الجدد يتحدثون في شبه مهمة واحس حمد بالفضول لاول مرة فسمع لنفسه ان يقترب وان يسترق السمع ، لقد كان الحدث يردد كلمات بألفها وان هو لم يستطع ان يفهم لاول وهلة ، موضوع الحديث :

— كانت القلعة عندما اقبلنا عليها لا تزال تحت الحصار الشديد والدخان واللهب يرتفع عالياً فوق ابراجها واسوارها ، وطلقات النار وتفجر القنابل يدوي في ارجاء الوادي .

كان النوار يهاجمونها من جهة واحدة من جهة البلدة ، بعد ان استحال عليهم مهاجمتها من جهاتها الثلاث الاخرى المبنية فوق صخور الوادي السحيق خرقوا جدران البيوت الملاصقة للاسوار ونصبوا السلام وتدافعوا فوقها واحداً اثر واحد وهم يمزجون بالخان جافة غريبة ، يرمون القنابل اليدوية ويغمسون الحف بالبتول ويشعلونها ويقذفون بها السقوف الخشبية فتسمع لها من بعيد فرقة رهية يزيد بها النار والدخان هولاً ورعباً .

دافعت الحامية دفاع المستميت وكانت على وشك الاستسلام عندما اقبلنا وعندما بدأت المدفعية والطائرات تدك صفوفهم دكا فانسحبوا .  
وهنا أشعل المحدث الشاب سيجارته وأشار الى حمد بالاقتراب عندما شعر مثلما شعر رفاقه الآخرون بأن كلمة واحدة من الحديث لم تفته .

- انسحبوا في فوضى حتى أنهم لم يتمكنوا على غير عادتهم من حمل قتلهم وجرحهم ، وجاء بعض رجال البلدة يقدمون خضوعهم للقائد وكان بينهم بعض الشيوخ وأشار القائد الى بضعة رجال منهم ، ساقهم الجند الى ساحة القلعة وسمعت على الأثر طلقات نار عرفنا بالسليقة أن حكماً بالاعدام قد نفذ .

وأمر الأهالي بجمع القتلى من الجانبين ، وكانوا كثيرين ، وكان منظرهم رهيباً حتى أنني أحسست بالغثبان ، إلا أن واحداً كان أشدها وقعاً في نفسي فقد أسرع بعض الجنود ينتزع ساعة من صدرية شاب تكوم على قدم أحد السلام وكان الشاب غريب الزي يلبس قنبازاً أبيض مخططاً وشعره الأسود اللامع يرتقي فوق منكبيه وعندما رفع الجندي الساعة كان الدم قد تجمد في الثقب الذي أحدثته الرصاصة القاتلة .

شقي حمد شهقة مكبوتة وأحس بقلبه يهبط ويتوقف ، وخيل إليه أن ركبته ترتجفان وان فيه قد جف ، وراح العرق بارداً يتصبب من جبينه .

لم ينطق بكلمة ولم يطلب أي إيضاح واكتفى بأن يتقبل لأول مرة سيجارة تناولها بشعور أو بلا شعور ولم يمر بمخلده على الإطلاق أنه ينتهك بذلك اعراف بلاده ، فقد كانت الصدمة مفاجئة صاعقة وراح ينفث الدخان في حركات واضحة الاضطراب وهو يجهد في ارسال دمعة محرقة تجمدت بعناد في مآقيه .

وفي ذلك السكون الرهيب نحركت شفتا حمد وسمعت مهمة كأنها قادمة من عالم آخر ، غداً ... دماء ، وخراب ، وتشرذم . . .



## الفصل الرابع

- استيقظت المهاجع في السجن العسكري ذات ليلة على حركة غير عادية ، وعندما بدأت أجراس المدينة ترحب بالعام الجديد ، صرت كالتيار الكهربائي وشوشة اهتزت لها القلوب فرحاً : عفو عام .

وفي الصباح الباكر كان الرجال يخرجون من المهاجع لتقل كل فريق منهم سيارة عسكرية تنطلق إلى إحدى الشكنات التي ازدادت عدداً واتساعاً خلال الأشهر القليلة الأخيرة .

أخذ حمد يستعيد لونه ونشاطه وبعض تفاؤله وهو ينتظر دوره للالتحاق بفرقة الجديدة في دمشق وظل نظره طوال ساعات فراغه معلقاً بأمواج البحر دون ان يسمح له أو لغيره بالاقتراب منها أو من المدينة فقد كان الجيش منذ منتصف الصيف الماضي في حالة حرب حقيقية .

وانطلق حمد في رتل طويل من الجنود المغاربة يدقون شوارع المدينة المقفرة بأحذيتهم الضخمة نحو المينا وتوزعوا على عربات قطار ما عم ان صفر صفر طوية وانطلق في سكون الليل ينفت ثاراً ودخاناً .

سار متمهلاً ثم انطلق في سهول بيروت إلا انه مرعان مابداً يتباطأ

وأخذ لوائه يزداد تسارعاً وحدة وهو يتسلق السفوح زاحفاً منشباً بالأرض وعرباته تصطك وتتايل وتترنح والجنود بين نائم يتراقص رأسه فوق صدره أو ساهر يهتز اهتزاز أوراق الحريف .

كان السفر مملأ مزعجاً ، والقطار كثير التوقف إلا انه لم يحدث له من المضايقات المزعجة غير بضع طلقات قارية عند مشارف دمشق جرحت بعض الجنود وحطمت بعض النوافذ .

وزع الجنود الجدد على المعسكرات الكثيرة المنتشرة حول المدينة ، وهنا ادرك حمد معنى العفو : انه استخدام لكل القوات العسكرية حتى السجناء لتغذية الحرب التي بدأ يعرف عنها بعض الخطوط الكبرى . وتعرف في معسكره الجديد على جنود من أبناء بلده كان واحد منهم مثله في السجن والثلاثة الآخرون كانوا في مخافر الحدود التركية شمال الاسكندرون .

وبدأت فكرة الحرب الى الجبل تراود اذهانهم وأمر بعضهم لبعض ومروا بأيديهم على شاربهم يسمون على الكتان واقفوا على خطة .

سار القطار من دمشق متجهاً نحو الجنوب وعرف الجنود جميعاً انهم ينقلون الى درعا مركز التجمع لحمة الربيع المقبلة . ولم يكن الأمر صراً .

وبعد ان اجتاز القطار محطة المسمية حيث مجموعة كبيرة من التجهيزات العسكرية توقف قليلاً بانتظار اصلاح السكة الحديدية التي كان الثوار قد نسفوا بضعة امتار منها في الليلة الماضية ، وعند الأصيل كان يقف قليلاً في محطة أزوع حيث انتصب تخيم محصن واسع ، ومن ثم بدا الليل البارد القاتم نجيم بسكونه المفزع على وجوه الجنود الذين كانوا أشد سكوناً وفزعاً وهم يقتربون من أرض لا تزال تعبق برائحة الدم والبارود والدمار .

- تباطأ القطار ثم توقف في قرية صغيرة لم يلبح فيها بصيص من نور إلا فانوس المائي يتجول بين العربات وضوؤه يتراقص خافتاً في الظلام الكثيب . وعندما كان يتحرك منطلقاً يبطئه كان أشباح خمسة يتسللون منه وينطلقون نحو الشرق الذي كانت محددته بوضوح انسياب القطار المتسارع باتجاه الجنوب .

وانطلق صوت يشبه عواء الذئب مرة تلو مرة وكانت تلك اشارة التجمع ، وهمس اقدم :  
- البواريد تحت المعاطف يا شباب .

وكان عناق خاطف وتمتات : الحمد لله بالسلامة ... توكلنا على الله ....  
وسار الأشباح الخمسة في صمت شامل فوق أرض رطبة لزجة زادت أحذيتهم الضخمة ثقلًا وفي سكون ظلام قارس مفزع .  
وبدأ المطر ينهمر رذاذاً تتخلله بين الحين والحين رشات صمحة وانحباس مؤقتة .

وازداد سيرهم ثقلاً كلما تقدموا ولكنهم لم يتوقفوا لحظة ولم يلتفتوا مرة واحدة الى الوراء ، واستمروا في سيرهم الأعمى بلا تردد او تساؤل نحو الشرق او نحو ما يظنون انه للشرق .

كانت ثيابهم قد تبللت واقدامهم المثقلة بالطين المزج قد بدأت تتراخي ودقات قلوبهم تتسارع بغير انتظام عندما لاحت تباشير فجر ضبابي ، ما لبث ان ازداد ضياؤه وضوحاً وبدت معه معالم الأرض في مزيج غريب من غموض وجلاء .  
توقف الأشباح وراحوا يتشاورون ويتساءلون في همس غريب مرتجف ، وأشار واحد منهم اشارة لاقم عن فرح عارم ولكنهم لم تكن توهي بحجية الأمل المريرة .

فقد بدا خلف الضباب المتحرك شبح قرية تتساقط سلوح لثة ضئيلة يجرحها  
بناء منفرد يرتفع فوق هامته صليب زاده ضوء الفجر المنبثق وضوحاً وروعة .  
لم يكن لدى حمد واثنين من رفاقه أدنى شك في انهم في اراضي قرية  
خربا ، اما الآخرون فقد لزموا الصمت ...

ودارت مناقشة مربعة لمجابهة المفاجئة التي لم يحسبوا لها أدنى حساب .  
- قد تكون القرية محنلة ، وقد يكون أهلها غير موالين للثورة ، فقد  
كانت معلوماتهم عن هذه التفاصيل لا تستند إلا الى شائعات طائشة .

وفي سرعة حازمة انلقوا على أن يختبئوا اربعة منهم في أي مكان صالح  
لاخفائهم وبتقدم الحامس بلا سلاح يرود القرية ، فالبارودة في مثل هذه المناطق  
المهجورة وفي مثل تلك الغرضى العارمة ، مطعم مغر وقد تودي بحياة صاحبها .  
لم يتأخر حمد في التأكد من ان القرية خالية من اي قوة فرنسية وقد  
اكسبه الجندية خبرة كافية لمثل هذا الغرض ، ومرعان ما قرر ان يدخل القرية  
هو ورفاقه فان وجدوا الترحيب كان خيراً وان حاول الأهليون مقاومتهم فانهم  
لن يستسلموا ولم يكن لديهم أي حل آخر فالأرض حولهم كانت مكشوفة فلام  
يحتملون مسيرة أطول ولا ثيابهم المبللة وجوعهم الشديد يسمح لهم بالاختفاء طوال  
النهار البارد المطير في بطن الاخدود الرطب .

وأشار اليهم فتقدموا جميعاً ، جنود خمسة بطراييشهم الحمراء التي زارها  
المطر تهديلاً ومعاطفهم المبللة ذات الأزوار الواسعة وبنادقهم الفرنسية الطويلة التي  
اضطروا أمام الخطر المحتمل المقبل أن يتأبطوها ، ومن ثم تقدموا متباعدين ولكن  
في خطوات واحدة ويدهم على الزناد .

وترا كض بعض شباب القرية يتخذون من سطوح المنازل متاريس لهم ،  
وسمعت نداءاتهم لتنتقل من سطح الى سطح :

لا تطلقوا النار ، خذوهم امري .

عندئذ رفع الجنود اسلحتهم ولوحوا بها في الهواء ، اشارة الولاء والمودة ، فتقدم للقائهم شاب اسمر في مثل سنهم عرفوا فيما بعد انه ابن زعيم القرية عقلة بك الشديد التعلق بالاباشا والمتعمس لثورة الاستقلال والحرية .

اشعلت النار ، وارتفع دخانها في سماء المضافة الواسعة المزدهجة بالشباب والبنادق ، وبدأ الدفء يسري في العروق التي بدأت تتجمد كأزوع ما يكون الدفء ، وادبرت القهوة المرة ، وقدم الفطور ، تتوسطه صينية واسعة من الكشك ثم ترك الضيوف لوحدهم يجففون ثيابهم على لب الجلة ، ويفرقون في نوم هنيء . وعندما استيقظوا وجنوا الى جانب كل واحد منهم بعض الألبسة المحلية فقد كان خطراً عليهم أن يتجولوا في المناطق الشاذة بزياتهم العسكرية ، وطرايبشهم الحمراء .

وعرف حمد من أهل القرية ومن الرجال للكثيرين الذين صادفهم في طريقه بان أهالي السويداء نقلوا عائلاتهم ومواشيهم ، وبعض غلالهم واقائهم الى الجبال بعيداً عن خط النار .

اقترب حمد من المدينة وهو ملتئم وبندقية في كتفه ، ولم يصدق لأول وهلة ما سمعه ، فقد كان الرجال في مشارف المدينة يروحون ويحيثون ، بنادقهم في اكثافهم أو في ايمانهم واجنده الرصاص تتقاطع فوق صدورهم ، وفي عيونهم يريق لم يعده من قبل : مزيج من التصميم والقلق . وتوغل في ازقة المدينة فاذا هي مقفرة خالية .

— الماء يتدفق من نوافرها صافياً ، لا جرة للتع ولا مندبل ابيض شفاف او تنورة واسعة ملونة تتأوج ، والابواب موصدة الا اقلها ، لانتفاء ولا خوار

ولا جناح يرف ، ولا ولد يلهو ، ولم يكن يخفف من رهبة هذا الفراغ الرهيب  
الكثيب غير حلقات الرجال حول نار السديان اللابة وخطوات بعض الشبان  
ينتقلون بصمت جنازي بين احياء البلدة الخاوية .

عرف كثيراً من ابناء بلده ولم يسمح لاحد ان يعرفه الا انه استطاع  
ان يدرك من الوجوه والازياء المختلفة والبيارق المتعددة التي مرت به بأن التعبة  
العامة في الجبل قد اعلنت .

دق الباب دقات متلاحقة عالية ووثب الى الباحة دون ان ينتظر الجواب .  
كان ابو حمود قد تقدم بضع خطوات ووقف يتفرس في القادم الغريب ،  
ومرغان ما غاب الرجلان في عناق طويل قبله الدموع وتغمره الزفرات المتقطعة .

واحس حمد بان والده يطوق عنقه بذراعه اليسرى ، وعندما هم ان يقبل  
اليد الخبأة تحت الفروة القصيرة قفز مذعوراً مرتجفاً فقد كانت الذراع متصلة  
كأنها قطعة من سديان .

ولم يحاول حمد ان يسأل عن حمود فلو كان حياً لكان الى جانب والده  
وهل يمكن ان يكون الشاب ذا الشعر الاسود الفاحم المنسدل فوق الكتفين  
والقنباذ الابيض المخطط الذي تركه رفاقه مكوماً تحت اسوار قلعة الشهابيين في  
راشيا سوى حمود .. وجلس ابو حمود يقص على ولده قصة الثورة .

كثرت يا بني المظالم ، سخره ، غرامات ، اهانة ، تكسير اجبار في  
الساحات العامة ، جاسوسية ، استبداد ، واستبداد ، حاكم اجنبي ، .. حاول  
زعماء البلاد التفاهم ، لم يلاقوا الا الاستخفاف والنفي الى اقصى البلاد الى الحسكة  
ولم يبق امامنا الا السيف ...

ذبحناهم في الكفر ، في أقل من ساعة ، وذبحنا الألوف منهم في المزرعة

و كسبنا المدافع والرشاشات والذخائر ... وكل أنواع السلاح .  
وامتدت الحرب الى الغوطة والاقليم والنبك وحماه وبعلبك ... وفي  
المسيفرة كانت غلطة ، ورائحة خيانة ، حصدونا بالرشاشات ، ومدافع الدبابات  
والطيارات ومع ذلك لم نتراجع فدخلنا البلد في وضع النهار ندوس جثث رفاقنا  
وننخطى الأسلاك الشائكة ونخطف السلاح من أيدي الجنود في الحنادق .

ولكن الحسائر كانت كثيرة والأرض مكشوفة لم تستطع التجمعات أن  
تصل إلينا انسحبنا مع الماء، القنلى في الأرض والقليل من الجرعى امكن انقاذهم،  
وفي اليوم الثاني كان الدخان من سهل المسيفرة يرتفع الى السماء .. احرقوا كل من  
وجدوه في الأرض .. كل من وجدوه .

اجبع الشبخ النار التي بدأت تحبو وتابع حديثه وهو يمسح بين الحين  
والحين الدموع السخية المتدفقة من مآقيه :

- حمود مشي مع حملة الاقليم ، كان اول من نصب السلم على سور القلعة ...  
وهنا أحس الوالد بأن حنجرته تحترق فتناول الطاسة الكبيرة يغرب منها الماء  
والدمع معاً في حين استرسل حمد يجيش بالبكاء ، وهو يتمتم ويصرف بأصانه .  
لحينيك يا حمود أبشر بالنار ... أبشر ...

ومع طلوع الفجر كان رجلان يخرجان من بيت أبي حمود شيخ وشاب  
ملتشم ووجهتهما قرية قنوات القريبة من المدينة .

استقبلت أم حمود ولدها العائد بآثم ضخم اشتربت فيه كل نساء القرية،  
ندابة تندب بطولة حمود وشبابه ، والنساء المتربعات على أرض الباحة المكشوفة  
الواسعة يرددن بصوت حزين رتيب وهن يكفكفن الدموع بأطراف مناديلهن،  
ومن بطولة حمود تنتقل الندابة تنوح على الرجال الذين سقطوا في الحرب وتنتشر  
مكارمهم واحداً واحداً ... وفي حركة خاطفة ودّع حمد أمه ، وألقى من بعيد،

ومن طرف عينه نظرة شوق الى العروس التي كانت تعصب راسها بقطعة من  
فماش أسود وتسترق نظرات الاعجاب الى الشاب الذي أحبه  
لقد كان العدو يقترب من السويداء ، وواجب الدفاع وحده كان يمين  
على مشاعر الناس ويحدد سلوك الجميع بلا هوادة ...  
وفي المساء كانت النيران تشتعل في قمم جبال حوران . كل القمم ...  
وذلك يعني ان الحرب قد بدأت ...

استطاع العدو الزاحف من درعا ان يهزم الثوار بأنه متجه في آن واحد  
نحو صلخد والسويداء ، وبذلك تمكن من تجميد بعض القوى في طريق صلخد  
او تعويقها عن الاشتراك بالمعركة في الوقت المناسب . تقدمت احدى الحملتين  
الى المجير وعري ثم انكفأت نحو رساس - السويداء لتساند الحملة الرئيسية  
المتجهة نحو المدينة .

كانت خسائر حملة عري - رساس كبيرة وشجاعة الثوار الذين لاحقوها  
لاتوصف ولكن الحملة تمكنت من ان تتقدم وتؤمن ميمنة الحملة الثانية التي بدأت  
مدفعيتها تدك خطوط الدفاع الامامية دكاً في حين كانت قنابل الطائرات  
تزلزل الارض وتملأ الفضاء سحابة عالية من دخان وغبار ورذاذاً من اسلحة  
وحجارة ودماء ..

ثبت الثوار في مواقعهم ثباتهم الذي اشتهروا به في تاريخهم الحربي الطويل  
واستطاع المدفع الذي غنموه في المزرعة ان يخلخل صفوف العدو ألا ان انفجاراً  
هائلاً دوى من المكان الذي كان جاثماً فيه ، وشوهد الهمب والدخان واشلاء  
شخص ترتفع في الفضاء وبدأت ميمنة الثوار تتزعزع فقد اختفت بعض البيارق  
وشوهدت وهي تنسحب نحو الشمال ، وبدأ فكا الكباشنة ينطبقان على الثوار  
من الشمال والجنوب .



تثبت المدافعون الاشداء بكل جدار ، بكل صخرة ، بكل زاوية منزل متطرف ر كع بعضهم في الارض العراء ، وهم يطلقون النار، وانتضى شاب بعد آخر خنجره يلوح به في الفضاء ، وقد نفذت ذخيرتهم .

دفن كثيرون خلف الجدران والصخور التي اتخذوا منها متاريس ، وتراجع البعض وهم لا ينقطعون عن اطلاق النار يقفزون من صخرة الى صخرة في دفاع بائس مستميت ، وثبت كثيرون وشوهدت الدبابات تسحقهم في تقدمها البطيء المأدب .

وعندما ايقن الثوار انهم لن يستطيعوا فك الطوق الذي بدأ يضرب من حولهم تراجعوا وهم يدافعون بضراوة وبأس من بيت الى بيت ومن زقاق الى زقاق ، وانطلقوا يهيمون على وجوههم في حقد ومرارة بين احراج السنديان وفي بحر من الحجارة والصخور نحو الجبال العالية ، فرادى وجماعات وقد تخلى الفرسان عن خيولهم الجرحى الكثيرين وتسللوا في الشعاب تطاردهم المدفعية ، وتلهو باقتناصهم طائرة بعد طائرة .

لم يستطع ابوحمود ان يحمل البندقية ، فقد تعطلت يمينه في المسيرة ، ولكنه استطاع ان ينغمي الرجال وان يحنهم على الثبات وهو يدور عليهم بالماء ، يحمل ذخيرة قتيل الى جوار بدأت ذخيره تتفد ، يعصب الجراح بالكوفيات وشاش العمام ولا ينقطع لسانه عن ذكر الله الا ليصرخ مشجعاً .

- عفي النشاما ، عفي ، اليوم ولا كل يوم ...

اما حمد فقد صمم على ان لا ينسحب ، على ان لا يهرب ، ثبت فوق سطح يطل على ( السوربة ) ، طالما قفز منه الى الماء لاهياً ، رمى فسقط الضابط المتقدم على رأس فصيلة من جنوده ... استدار الجنود وهربوا الى زقاق آخر ، وبرزت فصيلة ثانية وسمع صرخة تأوه ثم صوت جسم يسقط من مكان عال قبالة ، ثم

آخر وازداد تدفق الجنود وتسارعهم في اتجاه الشرق ، لم يكونوا يتعقبون الثوار المنسحبين بقدر ما كان الخوف والفرح والموت يطاردهم في أزقة البلدة الترابية الممرجة .

وعند الظهر كانت القوات تدخل القلعة وابواقها تدوي بين الطلقات المتقطعة ودوي القنابل المتباعد .

ساد المدينة الحالية الحاوية سكنون رهيب ، وخيم عليها جو من الكآبة ومرارة المذبة وخيل إلى حمد انه لا ينظر الى مدينة مغلوبة وانما الى فتاة عزيزة عليه تطأطأ رأسها بذل في اعقاب عار فاضح .

وبدأت سحب الدخان والسنة اللهب ترتفع في انحاء متفرقة من المدينة وأحس حمد ان الجيش ينتقم من المدينة للباسلة الشديدة العناد والكبرياء ، وان دوريات تنظيف البلدة من الجرحى والقتلى بدأت تتجول ، فاضطر الى الاختفاء لانه لم يشأ ان يموت رخيصة ، وعند المساء كان ينطلق في امراج هجرتها وحوشها وراحت تطلق عواها الكئيبة المفزع في اجواء المعركة الرهيبة الهامدة .

## الفصل الخامس

كان الخامس والعشرون من نيسان ١٩٢٦ ذروة النضال الثوري المسلح، فقد كان لسقوط السويداء والحماير المتلاحقة بين رجال الحرب ، وللدعاية الانهزامية يروجها العملاء ، وللشهور العشرة من القتال الضاري غير المتكافئ ، ولحصار الثورة في الغوطة والجل ، كان كل ذلك وغير ذلك ، كافياً لتحويل المعارك الحربية المقبلة الى حروب عصابات تغير وتختفي ، تضرب ولا تسمع للقوات النظامية ان تضربها ...

كان هم الثوار الاول ان يتعدوا بعائلاتهم عن الحملات العسكرية التي تنطلق من السويداء باتجاه الشمال والجنوب ، فكانت اللجاة ، المنطقة الصخرية الواسعة التي يستحيل على الآليات ان تعمل فيها والتي تحتوي على عدد هائل من الكهوف والشقوق الصخرية والتي طالما لجأ اليها ابناء الجبل في حروبهم واعتبروها قلاعهم ، وكانت منطقة الأزرق الواحة الجنوبية البعيدة عن قرى الجبل المأهولة . ولم يكن وصول العائلات والمواشي الى اللجاة بالنسبة لقرى الجبل الشمالية والغربية يشكل صعوبة تذكر الا ان الرحيل ( الهجيج ) نحو الشرق والجنوب مأساة مريرة قاسية لاتزال العجائز وبعض الكهول يسردون بعض قصصها وهم يرددون من حين الى حين :

- تذكر ماتعداد ...

انهم في ابتهالم الى الله ان لا يعيد تلك المأساة بزهبتها وشقائها ومرارتها  
يعيشون الرعب الذي لم يفارقهم حتى اليوم ...  
طفل على كتف امه وآخر بين يديها ، وبنات واطفال يرتجفون حولها  
وهم حفاة في اطار لا تقدم برد الربيع الجلي القارس .  
وفارس جربج منبطح على ظهر فرسه معصب الرأس وساقه تلوح في  
الهواء . ورجل يحمل رضيعاً وهو يصرخ باعلى صوته :  
لمن هذا الولد باحريم !..

انه رضيع هربت امه مذعورة من قذائف الطائرات المفاجئة ونسبت  
حيث كانت تستريح من عناء الطريق المصعد القاصي المغطى بالشوك والصخور ،  
ومجموعة من النساء تملقن في العراء بقلق وابتها ، حول امرأة جاءها الخاض  
فتهاوت وهي تكلو بزبيج من الألم والذعر .  
وعلى بضعة خطوات كان رجلان منهمكين في تقاييب كومة ضخمة من  
الحجارة لتواري عن انياب الضباع جثة لم تزال تختلج .

وخُرُج بتدلى فوق ظهر حمار تعتليه عجوز عمياء وبطل من جانبيها ومن  
فوهة المخرج آلة خياطة بدوية من جهة ومن الجهة الثانية رأسان لطفلين يتموج  
شعرهما الاسود في الهواء وقد احمر انفهما ، ودمعت عيناها من البرد .  
وعلى ظهر حمل اثاث البيت : اغطية وفرش وطعنين وسجاد . . . وندلت على  
جانبيه وعنقه الطناجر وبضع دجاجات ، وهو يكاد ييجن من حين لآخر كلما ازت  
طائرة او قرقرعت طنجرة ...

الشعاب العالية تسيل بمواكب مهزومة مذعورة ، نساء واطفال وصبايا  
وجرحى وعجزة ثكالى وابامى وحبالى ومرضعات ،  
وشيوخ يتسللون بين النجيب والاولجاع والدموع ، والحوف والجوع

والبرد والذعر المفاجيء يحرسهم بعض الرجال المسلحين ..  
اما الرجال الآخرون فقد قتل اكثرهم في معارك السويداء والغوطة  
وجبل الشيخ وراشيا او شوتوها تشويها اقدم عن حمل السلاح او تفرقوا في  
الجلال عصابات عصابات تضرب ضرباتها الاخيرة في عناد يائس .  
وفي الرابع من حزيران كانت قلعة صلخد تسقط تحت ضربات مدفعية  
العدو الزاحف .

وفي هذه الاثناء رفع شاب وسم الطلعة لبناني الهبة يده عالية ، في احد  
الشعاب الشرقية من الجبل وصاح :

— من يريد ان يتبع عادل النكدي للجهاد في الغوطة .  
وانطلق فوق جواده العربي الاشقر يحف به عدد من الفرسان  
مجدون وجزجون :

يافرانسا والله مانطيع ..  
وفي الغوطة تجددت المعارك وتجددت معها بطولات ومكارم وهيمنت  
من جديد روح الفداء والاستبشار .

ولكن ، ما كاد النكدي يلفظ انقاسه بين يدي رفاقه وجراحه تنزف  
حتى تضععت الغوطة وشعر حمد واصحابه بأنهم لن يستطيعوا القتال بنجاح  
وحماة بعد ان سقط قائدهم وفي هذه الأثناء جاء من يحمل الى حمد خبر موت  
ابيه ، وتحمل حمد المفاجعة مجلد واضمح فقد شغله القتال حتى عن اعز  
الناس عليه .

والتحق حمد بالثوار المعتمدين بالجهاد ، ينسف الخط الحديدي ويشتبك  
في مناوشات خاطفة مع بعض الخافز الامامية العسكرية وكان الطابع الرئيسي  
لتلك المنطقة وتلك الفترة هو طابع الدفاع .

الا ان حمد لم يرغب ان يستمر طويلاً في معارك دفاعية وان تكن ضاربة عنيدة يفرضها الزمن والمكان والامكان فرضاً على المتعصمين بها . أليست اللجاء قلعة ؟ ..

كان هو يرغب ان يكون اكثر انطلافاً وحرية في حركته ، فلماذا لا يلجأ الى الجبال يضرب ويختفي ؟ . لماذا لا يتصيد العدو تصيداً ، قاماً كما يصطاد الحبل والأرانب الجبلية ؟ ...

وكان على يقين من انه لم يبدع هذه الفكرة ، والعصبات في الجبال منتشرة وان تكن قليلة في عددها وأفرادها الا انه كان يحس بأنه منساق عفويّاً الى هذه الطريقة لارهاق للغاصب الحديث الانتصار ، ومن ثم للأخذ بالثار ، الثأر للجد . . . والأخ . . . والرفاق . . . والذراع التي تمحوت الى قطعة من سديان .

انطلق الى الجبال وانطلق معه ثلاثة من أصحابه الشباب الأشداء ، يضربون ويختفون في الكهوف وفي القرى التي بدأ بعض سكانها يستسلمون ، تأوهم وتستتر عليهم .

يظهرون فجأة أمام أسوار القلعة ، أو يخفون بفتة على قافة تموين أو دورية استطلاع وفي كل مرة يتسللون ظافرين ، ليختفوا في الشعاب المضيافة المعلقة بالسحاب .

كان حمد ورفاقه ينسقطون الأخبار تحملها اليهم امرأة تجمع بقول البويرة أو فلاح عاد بقلب المناس بعد البندقية والسيف ، وكانت الأخبار تصلهم مقتضبة الا انها في أكثرها صادقة ومشجعة :

في قرية أبو زريق فاجأت قطعة من الجيش ( الباريزان ) بعض الثوار ، قتلت منهم وشردت الباقين ...

- وفي قبصا ، هزم الثوار العسكر والبارتيزان وفي الصوخر هاجم البارتيزان الباشا سلطان قتلوا فرسه ، وكادوا يأمرونه لو لا انه امتأت في الدفاع مع رفاقه القلائل ...

- في اللجاء قام البارتيزان والجيش بهجمات متلاحقة تساندها الطيارات والمدفعية ولكن دون أن يستطيعوا زحزحة الثوار .

قتل الكابورال محمود الجزائري الذي التحق بالثورة واستولى العدو على رشاشه الثقيل ، الذي كانت تعز به وبصاحبه عصابات الجنوب .

تذكر حمد صديقه الكابورال محمود فبكاه وحيداً في رؤوس الجبال وراح يستعيد في ذهنه مخيم ميلون ونبؤة الكابورال الرهبة :  
دماء وخراب وتشرذ ....

ولم يحمد بادىء الأمر على البارتيزان ، أولئك الشبان الفرسان ، من أبناء بلده الذين تطوع بعضهم في الجيش ، كما سبق له أن تطوع هو ...

الا انه لم يستطع الاستمرار في توير خدمتهم للعدو ، صحيح انه هو من الشبان القلائل الذين أغرتهم البدلة والبندقية ، الا انه لم يكن يخطر بباله على الاطلاق انه سيوجه هذه البندقية الى صدور أبناء وطنه ، وعندما وقف وجهاً لوجه أمام التجربة استطاع ان ينتصر عليها ..

أما هم فانهم يزدادون عدداً يوماً بعد يوم ...

لقد كانوا فوق خيولهم العربية ، وفي منطقة يعرفون شعابها وبطاحها معرفة جيدة ، يرهقون العصابات المنتشرة من اللجاء حتى حدود امارة شرق الاردن بكشوفونها ويطاردونها ، ويقتلون منها احياناً لو يسمعون للجيش المتقدم خلفهم ان يقتل منها ...

وهذه اخبارهم في ابو زريق ، وقبصا والجهاء ...  
كان حد يعرفهم ويعرف طريقهم في القتال ، شاهد بعضهم من عشرين  
الى ثلاثين خيالا يتقدمون على رأس الجيش الفرنسي في معركة السويدهاء الرهية ،  
شعر بالاشمزاز آنذاك الا انه مرعان ماغفر لهم .  
ألم يكن هو ايضا متطوعاً في جيش الشرق ؟ ...

واصطدموا به وبعبابته غير مرة إلا أنه كان ينسحب ورفاقه بلامقاومة ،  
لاخوفاً او جبناً وانما تجنباً لاراقة دماء مواطنين سواء أ كانوا مغرورين او خائنين ،  
ومع الزمن اخذ هذا النوع من الهرب والتجنب يتحول الى اشمزاز فحقد ، وخيل  
اليه غير مرة ان يضربهم ، ان يتصيدم تماماً كما كان يتصيد الدوريات العسكرية ،  
الا انه كان يقضل دائماً عندما تلوح كوفياتهم البيضاء في الافق ، ان يجيد عن  
طريقهم وفي نفسه صراع ...

وكان فصل الشتاء فصل هدنة طبيعية وان تكن متقطعة بين فلول  
العصابات والحملات العسكرية التي تجولت بقوة اثناء الصيف ، متغلبة بضخامتها  
وعتادها على المضايقات المزعجة حيناً والطفيفة احياناً اخرى ...

وفي مطلع ربيع ١٩٢٧ لم تشهد شعاب الجبل غير عصابة حمد ذباب  
للفار من جيش الشرق مع ثلاثة من رفاقه احدهم جندي فار مثله ، حمود نعيم ابن  
بلده ورفيق جهاده . عادوا يتصيدون العدو تماماً كما يصطادون الحجل او  
الوحش ...

و ذات صباح ، ازت طائرة خلف السحاب المتقطع ، وانطلق منها الى  
الارض ما يشبه القنبلة الصغيرة أخذ يرتفع منها الى عشرات الامتار دخان كثيف ،  
وصوبت البنادق الاربع نحو الطائرة ذات المحرك الواحد والاجنحة الاربعة الا  
انها كانت قد اختفت بسرعة خلف السحب والقمم .



عرف الرجال الاربعة انهم امام عدو مقبل ونظر بعضهم الى بعض وهم  
يعتصمون بالصخور الضخمة النائية وقد كان الماء لا يزال متجمداً في ثناياها، ولاحت  
من بعيد الكوفيات البيضاء وتطلع الرجال من جديد بعضهم الى بعض، وامتدت  
اكفهم الى جرار البارودة واصقوا بالصخور كأنهم قطع منها ، وهمس واحد منهم  
في شبه امر :

- لا تضربوا الحيلة ... اضربوا الحيل ...

وسقطت جياد ثلاثة وهي ترفس الارض ، بعد ان قفز أحدها في الهواء  
وهو بصهل وينكفيء على فارسه الذي ضل ممدوداً ، في حين تمكن الآخران من  
ان يخلصا ساقبها في حركات عصبية مرتجفة ...

توقف الحيلة فجأة ، ثم انتشروا متباعدين وهم يشكلون قوساً واسعة .  
وتقدموا ببطء شديد وهم يطلقون النار بلا هدف على اكوام الصخور السوداء  
اللامعة وسقطت جياد اخرى ، وشوهد فرسانها يزحفون في الطين اللزج وهم يشدون  
على ساق مرضوضة او ذراع مهشمة ..

وسمع حمد صوت واحد من رفاقه همس : انهزموا ..

ولكنه لم يتم به فقد كان يفتش بعيني عقاب عن القبعة الاسطوانية ذات  
الاضرطة الذهبية ، ولكن دون جدوى .

ولم يجد لذلك تعليلاً مقنعاً ، فان مثل هذه الكوكبة من الفرسان لا يمكن  
أن تخرج الا اذا كان على رأسها ضابط فرنسي ، وهذا التلدم العنيد لا يمكن  
أن يتم في غياب الضابط الاجنبي ..

والنفث حواله فجأة فلم يجد غير الصخور السوداء اللامعة والبرك الصغيرة  
المتجمدة يثر فوقها ويثن سيل من الرصاص المنهمر ..

- سلم يا حمد ... سلم ...

ومد حمد يده الى جناده يعمر بندقيته من جديد ، واحس بتهيء كآبهم  
يخترق كتفه فيسقط المشط من كفه ، ومحاول ان يتناول غيره فتأبى يده ان  
ترفع ومحاول ثانية ان يساعدها باليسرى وهو يتمم :

- احس يا حمد .. شد حبلك ..

وتكاثر النداءات حوله وتعالى :

- سلم يا حمد ... سلم بوجه فلان ..

وبتلس حمد صدره فاذا كفه ترتفع مضرجة بالدم . واذا انفضاء يتراقص  
امام عينيه بقعاً حمراء وصفراء ، وقطعاً من ظلام دامس .  
وعندما فتح عينيه على صوت بصرخ بحدة ورجاء :  
جندي مون كابتن ! .. سولدا مون كابتن ! ..

شاهد فوهة مسدس تتراجع عن صدغه ، وعينين زرقاوين تنظران اليه  
بحقد وحنق تحت حافة قبعة يزينا مشربطان مذهبان وقد لفها شال من الصوف  
الابيض الناصع ..

وعندما فتح عينيه للمرة الثانية كانت يدان تسليخان بعنف وقوة عن أعلى  
صدره كوفية مغمسة بالدم المتجمد ، ووجه حليق فوق مئزر ابيض يتفحص  
الجرح باهتمام ثم تتحرك اليدان من جديد ، وتتحرك معها يدان فاعمتان وعينان  
بلون البحر ، كان حمد يحس بالام قاسية لا تطاق ، ولكنه لم يسمع لنفسه أن  
يذل ، أو يتوجع ، أو يصرخ ، كان بعض على شفته حتى يكاد يدميها ، او يغمض  
عينيه أو يصر على اسنانه في حشرة مختلفة ، كلما غرزت في جرحه العميق آلة  
حاددة او سكب فروقه كحلول يحس معه وكأنه يمترق فجأة .

تمنى غير مرة لو ان المسدس الرهيب لم يتراجع عن صدغه ، لو ان جرحه

كان قاتلاً لو ان احداً لم ينه الضابط ذا القبعة الخنقية نحت للشال الأبيض الناصع الى ان الجريص جندي فار فيجيز عليه بعودة وبساطة .

لم تكن آلام الجرح المبرحة وحدها هي التي جعلته يتمنى الموت وبشنتيه وآلام الأمر والقهر اشد مضاعفة ، الا " أن البسمة الناعمة واليد اللطيفة تمسح العرق المتصبب على جبينه وعنقه ، واشتياقه الى اخبار الأهل ، واعتزازه بان لم يستسلم ولم يقتل ابناء وطنه ، رغم حقهده واشمئزازه ..

كل ذلك جعله يتقبل الحياة بشيء من الاستسلام الهادئ .  
وفي خلال شهرين ، خالها عامين كاملين وقف حمد في المحكمة العسكرية وبده لا تزال بالاربطة البيضاء فوق صدره .

كان شجاعاً ثابت الجأش ، تكلم بانطلاق وبساطة ، اكد للمحكمة ، بكل جرأة انه فضل ان يحمل السلاح الى جانب مواطنيه ، تلقائياً وبقناعة شخصية على أن يحمله خدوم ، كان يتمنى لو استطاع الثوار ان يخرجوا فرنسا من البلاد بقوة السلاح بعد ان فشلت مساعي السلم ، كان الثأر يغلي في عروقه ويدفعه الى الانتقام للبلد الشجاع المغتصب ، للأخ الشهيد وللذراع المتصلبة ، وللناس الذين قتلوا أو شردوا دفاعاً عن اوطانهم وعن استقلال بلادهم وحريتها .

كان يتكلم بهدوء ، بلا جعجعة ولا تكلف ، وذكر بشيء من الاعتداد انه لم يسمح لنفسه ان يطلق طلقة واحدة على الفرسان المتطوعة ، كان يرمي خيولهم ليرتدوا عنه وعن رفاقه ..

وكان القضاء بيزاتهم العسكرية الفخمة ، واوسمتهم البراقة الملونة ، يتبادلون نظرات تصطنع الهدوء الا ان بريق الاعجاب الحاقد كان يفضعهم بين الحين والحين .

وقف حمد ، غريباً وحيداً ، لاشجعه اي لفته ، ينتظر نتيجة المداولة بزيج من الطمأنينة والقلق .

وعندما وقف الجميع يستمعون الى الحكم المبروم :

- اعدام يخفف الى عشرين سنة نفى وعشرين سنة اشغال شاقة ..

احس بغصة تخنقه ، وبموجة من الحقد الجارف تغمر صدره الجريح .  
وكاد يتهاوى لو لم يستند بيده الحرة الى حاجز القفص الحشي .

- اعدام يخفف الى عشرين سنة نفى وعشرين سنة اشغال شاقة ..

وخيل اليه ان حكم الاعدام اخف وطأة وارحم من هذا الحكم ، ولكنه  
لم ينطق بكلمة ، لم يعترض . لم يستعطف بل اسلم نفسه الى السجان يجره بسلسلة  
من حديد يطبق طرفها الضيق البارد على معصمه الشديد النحول .

## الفصل السادس

كانت صفارات الباخرة تنطلق مبحوحة متقطعة ، فيتردد صداها في ابنية المدينة ، والتلال القرية المكلفة بغابات الصنوبر .

وكان البخار يندفع ابيض كقطع الغيم ليختلق في الدخان الثقيل الاسود المتصاعد كثيفاً تتسلى الريح بتدريته في الفضاء المتجهم .

وكانت طيور النورس ذات الاجنحة الطويلة القوية البيضاء تحوم بحماسة فوق الميناء، والبحارة والمسافرون والمودعون والقوارب الشراعية الصغيرة في حركة وضجة لا تنقطع ...

وعندما بدأت الباخرة تترنح متأرجحة بتثاقل ، وبدأت مقدمتها نشق الموج بدلال وفيه ، تغلغلت في العنابر اجساد كانت منبطحة فوق الحديد تلف ذاتها في بطانيات سمراء متهاكة .

كان بعضهم قد جرب البحر ، أما الآخرون ، فهم لا يعرفون البحر اطلاقاً او يعرفونه من بعيد .

مئات من السجناء المنفيين تكوموا في عنابر الباخرة ، تحت الحراسة المشددة وفي ظل اقصى التعذيبات ، ليساقوا الى ديار لا يعرفونها وليقوموا باعمال

لم يستطيعوا ان يتصوروا مدى تحملهم لها ، والى مستقبل كالح مرور لا يدركون له نهاية ولا يلعبون فيه شعباً مشجعاً من رجاء .  
وبدأت الحركة على السطح تها ، واحس السجناء في قاع السفينة بما يشبه الغثيان والاختناق ، وطلبوا الاذن بالسباح لهم في الوصول الى المغاسل ...  
اثنين !.. اثنين !..

صرخ السجناء بصوت حاول ان يودعه كل معاني الخزم والتهديد والقوة وتقدم اثنان من السجناء نحو السلم الحديدي المعلق بكوة صغيرة في السقف ، وصعد واحد تلو آخر ...

كانت بقع السماء تنكشف شاحبة بين الغيوم الداكنة المتحركة المتدافعة باستمرار ، وكانت ، الريح تصفر باردة كثيفة والشمس ترمي بأشعتها الباهتة المتحضرة بعض رؤوس الجبال التي بدت بعيدة وضئيلة ، وقد ارتقى تحت اقدامها خط متعرج داكن تلمع فيه بين الحين والحين بقعة باهتة ملونة . والبحر الذي بدا بالامس امام ناظري حمد رهيباً متدافعاً يزار وينكسر رذاذاً على صخور الشاطئ ، بدا الآن اكثر وقاراً وأقل رهبة ، وخيل اليه ان لونه لم يعد بلون السماء .

وفي السفينة ذاتها كان المسافرين قد اختفوا من الممرات وان بدا بعضهم احياناً يسرع الخطى من مقصورة الى اخرى وهو يشد بيده على قبعة يكاد يقتلعها الريح او يغطي اذنيه بحافة معطفه وهو يتجمع بشيء من الارتباك والقلق ، اما البعارة فقد انصرف كل واحد منهم الى عمله في حين ظل بعضهم يدخن غليونونه بهدوء وهو يستند الى حاجز او سارية ، ويسبح بنظره في الافق الذي بدأ يلفه ظلام تلتصق فيه مجموعات كبيرة ضبابية من الانوار المعلقة بين الارض والسماء ، ويفرق في ذكريات ملاهي بيروت الصاخبة ودفء لياليها .

وكان السجان ، وقد تسمر حوله عدد من الجنود وايدهم على زناد  
بنادقهم بصرخ بين الحين والحين :

- انزل بسرعة ... اطلع بسرعة ...

ثم ساد السكون من جديد ولم يعد يسمع غير ضربات الامواج تتكسر  
على جدران العنابر ، وهي تمحلق برعب مهددة مزبدة من خلال الكوى الزجاجية  
الصغيرة ، ويرتفع بعضها في الهواء معربداً ينسكب رذاذاً كثيفاً من خلال  
الكوة المعلقة في السقف ، وانطلق في ثنايا ظلام العنبر الكثيب الرطب المتأرجع  
صوت حزين ، حزين حتى الموت :

يا حسرتي ناحت علينا النايحه

والعين تبكي والمدامع ساجه

من بعد طيب العيش والمي الزلال

صراً نشرب من بحور المالحه .. آه ..

واختفت الآه في نشيج متقطع طويل ...

لم تعد الاجساد الممددة فوق حديد العنابر تعرف اين هي وكـم من  
الزمن مضى على وجودها في هذا الكهف الحديدي المرتجف ، ولم تعد تعرف  
الليل من النهار الا من السكون الذي كان يحيم فوقها ومن حركة الركاب  
المتدافعة في الممرات او من وجبات الطعام المقنن الجاف في اوقات شعروا  
انها ثابتة .

وعندما كانوا يحسون ان المركب قد توقف ، وان صفارته بدأت تدوي  
كأوا أشد شوقاً وتلهفاً الى المغازل يطلعون من كواها على العالم الذي تشرق  
عليه الشمس ويتحرك فيه الناس بحرية ...

كم كانوا يودون لو استطاعوا ان يقفزوا الى ذلك العالم الذي ازدادت  
الوانه بهجة وحر كته مرحاً ، وجوه سحراً .

وفي غمرة من هذا الشعور المزوج يجنون اليأس كان بعضهم يقذف  
بنفسه في أمواج البحر في غفلة أو تغافل من حراسه .  
وخطرت لحد مثل هذه الفكرة ...

لماذا لا يضع حداً مبكراً للمصير الرهيب الذي ينتظره ؟ ...

لماذا لا يفوت على جلاديه فرصة تعذيبه وإذلاله ؟ ...

لماذا ؟ ... لماذا ....

الا ان طيفاً واحداً يلتم بدليل أبيض فضفاض ظل بنظراته المتوترة  
المسعدة يبخر من وراء الغيب كل محاولاته ، يهدر اشعة الشمس الجلية  
وامراقها ..

تذكر حمد نزمته الحافظة على شاطئ البحر في بيروت ، وهو يتطلع  
باستغراب ومرح الى السباحين الصغار ، وصياد السمك والموج الفضي اللعوب ..

آه - كم كان البحر جميلاً رائعاً مشوقاً يومذاك

اما اليوم ... فقد احس بانه بشع ، متحجر ، يستحق كل حقد ونقمة  
وهذه السفينة التي بدت في افق الأمس دارة لطيفة سحرية تنزلق وتتهادى بدلال  
وليه ، بدت اليوم في نظريه نعثاً كالحاً من حديد يتحرك في الجهول الخائئ نحو  
الجهول الرهيب .

وفي المساء او في ماخيل الهم انه المساء كانت تترامى الى مسامعهم  
نغمات موسيقا ، تضج احياناً وتخفت احياناً ، عرف فيها بعضهم ان سهرة راقصة  
قد بدأت فوق ..

وكاد حمد في مثل تلك الساعات ان ينسى نفسه فقد كان خياله الشاب  
يخترق به الكوة المعلقة بالسقف ، وينطلق به الى ظهر السفينة ويجوس في المقاصير  
التي لها حمد وهو يُدفع دفعاً نحو كوة العنبر ..



كم كان يتمنى لو عرف شيئاً عن حياة الناس الذين يعيشون فوقه ، تمنى ان ينظر الى وجوههم ، ان يتحدثهم ، ان يشاهدهم وهم يرقصون على انغام موسيقا لم يألّفها وابقاع غريب جداً عن الحان المجوز والشابة التي تعودها . .

وتذكر حمد الصور الرهيبة التي كانت ترسمها العجايز للجنم والجنة ، وهن يتسلين ب صنع اطباق القش الملونة تحت شجرة التوت الضخمة ، تذكر تلك الصور واحس انها قاصرة عن هذا الواقع الذي تحياه غناير السفينة ، ومقاصيرها لولا رائعة الشواء التي كانت تفوح في احاديث العجايز الجليليات .

كان الطيب يزورهم من حين الى حين ، وكان يوصي بنقل المرضى من بينهم الى مستوصف خاص ، وكان الذي يرجع منهم يروي لرفاقه شيئاً من العالم الآخر ، فوق ، شيئاً مشرقاً ، مثيراً ، كله بهجة ومرح وانطلاق . . .

واحس حمد بدافع جارف يزين له الانتقال الى المستوصف البهيج وكانت جراحه تسمح له بان يتراخى فينقل ، ولو مؤقتاً ، ولو بضع ساعات ، من هذا النعش المرتجف الا ان كبرياهه ظلت تأبى عليه ان يتهاوى وهو على عتبة درب شديد المشقة لا يعرف اين ولا كيف ينتهي . . .

و ذات مساء ترامى الى سمع الاجساد المتقلقة في العناير الرطبة المظلمة اصوات صافرات مبسوطة متفاوتة الابعاد والنغم وشعروا بحركة ذهاب واياب وقرقعة خافتة فوق رؤوسهم ، ووصلت الى انوفهم رائحة الزيوت والدخان ، والفحم الجعري . . . وما كادت تساؤلانهم تبدأ حتى كان السجان وخلفه ثلة من الجند تطل برؤوسها الفضولية من الكوة وفي ايديها رزم هائلة من الحديد الابيض .

— اثنتين . . اثنتين . . .

صرخ السجان وهو يطل بنصف جسمه من الكوة ثم انتصب وراح يوزع اوامره وتعلياته على الجنود .

راحت القعود الحديدية تستقبل السجناء في حراسة الحراب والوجوه العابسة الكالحة واخذت السلام قصر وتفرقع تحت وقع اقدام متناقلة تنزلق بجذر وهي تلمس طريقها نحو الميناء الذي بدا هادئاً ساكناً في مثل تلك الساعة من الليل ، في حين كانت اضواء المدينة تشعشع برامة متراقصة .

كانت سجون مرسيليا تنتظرهم ، وها هو القطار بحرابه الطويلة للسوداء ، يقلبهم نحو القلاع المطلة على المدينة وعلى الميناء الذي اخذ يبدو غابة من جذوع تتحرك وتمايل .

عرف حمد سجن الرمل في بيروت . ان سجنه الجديد لا يختلف كثيراً عنه وان بدا انظف واحسن طعاما .

الا انه كان على ما يبدو سجناً مؤقتاً بل محطة للسجناء في طريقهم الى السجون الاخرى .

وفي اليوم الثاني وقف السجناء ارباباً في الباحة العالية الاسوار وانتصب احد الرقباء يتلو قوائم طويلة من الاسماء والارقام .

ولاحظ من حمد التفاتة الى الصف الطويل على يساره واذ به يحدق في وجه دقيق ذي شاربين خفيفين ... انه رفيقه وصديقه في العصابة ... حمود بن قاسم نعيم ( المدير ) من السويداء .

غير ان العريف لم ينطق بهذا الاسم او بما يقرب منه ، بل طلب من السجناء الذين نادى على اسمائهم ان ينفصلوا عن رفاقهم الى زاوية نائية من الباحة .

وكان وداع وكان عناق ونشيج في حين كان الحراس المنتشرون بكثرة فوق اسوار الباحة ينظرون بكثير من البرودة الى هذا المشهد الذي الفوه من عهد طويل .

سارت قافلة السجناء الى حيث ينتظرها الاغلال والقطار من جديد . وكان القطار هذه المرة من نوع آخر ، سجون خشبية منفردة ذات كوى

حديدية مغيرة يرتبط بعضها ببعض في خط طويل طويل .  
جثم حمد في زتراته الغريبة طليق اليدين الا انه عاجز عن الحركة الحرة  
فقد كان اللقص ضيقاً منخفضاً خانقاً وان ظل هواؤه على شيء من اللطافة .  
وارتفعت العربات وتقلقلت متحركة ببطء ثم انطلقت يشق الأجواء  
صغيرة الحاد وقرقة شاحنتها في انطلاقة جنونية نحو المجهول .  
لا شيء غير قرقة واعتزاز وصغير وبوهة توقف ثم انطلاق متقلقل جديد  
فانسياب ومهمة لا يقطعها غير كرة تفتح في اوقات محددة يرمى من خلالها بعض  
الحيز الجاف مع قطعة جبن او علة مردن .  
توقف القطار قبيل المنيب وسمعت ضجة ونداءات واوامر وقرقة سلاح  
متلاحقة في ارجاء المحطة . ومن ثم تقدم بعض الجنود وفي أيديهم رزم حديدية  
بينما وقف عدد كبير آخر منهم وأيديهم على اسلحتهم .  
كانت العربات تفتح ، ويؤمر السجين بالخروج لتلقفه اغلال الحديدويقرن  
بزميل له ، ومن ثم تؤمر القافلة الطويلة المكبة بالسلاسل والأغلال بالسير في طريق  
بدا خالياً الا من حراس يتجولون وبنادقهم في ايدهم او فوق اكتافهم ... تقدم  
المركب الكتيب الرهيب في صمت يكاد يكون ممبعا لولا وقع الاقدام المتأققة  
والتنبيهات الحاطقة الجافة من حين الى حين .  
وعندما كانت الشمس تختفي كان السجناء الجدد يكدمون في غلبر ضيقة  
رطبة خانقة يتوسد بعضهم بعضاً بلا طعام ولا غطاء وهم يحاولون ان يلوذوا بالنوم  
الذي استعصى على اجفانهم المسهدة المرهقة .  
وكان حمد يستد بظهره الى الجدول اللزج في محاولة لتخفيف من متاعب السفر  
الطويل المضي ، وكان بغمض جفنيه عمداً بين الفترة والفترة ، يغريها بمحاولة النوم  
والاستسلام للنعاس ، ولكن دون جدوى فقد كانت الذكريات المريرة والمستقبل  
الكالغ والعذاب والجوع والتعب كل ذلك يشد اعصابه شداً يجنح من فولاذ .

ومع الفجر كانت الأبواق تدوي في القلعة الضخمة الواسعة ، وكانت الحركة تدب فيها صاحبة متارعة .

وقدح باب العنبر ونودي على السجناء الجدد واحدًا واحدًا وهم يؤمرون بالامراع إلى باحة جانبية حيث راح السجنان يقسمهم إلى فرق صغيرة تلقف كل واحدة منها باتجاه باب حديدي ضيق منخفض يقف على جانبيه جنديان مسلحان . ورأى حمد السجنان يأمر السجين الأول بأن ينزع ثيابه ، فلم يتردد بل أخذ يخلع ملطفه وقمصه ومرواله بشيء من الحفة ثم وقف في شبه استعداد بشيابه البيضاء الداخلية .

ألا أن السجنان راح يصرخ في وجهه بحدة وحزم وهو يأمره بأن يخلع كل ثيابه . . . كلها . . . وأن يكومها إلى جانبه وهو عار . . . كما ولدته أمه . . . وتقدم أحد العرفاء يرزمها ويربط بها بطاقة تون عليها اسم السجين ورقمه ثم أشار بيده نحو أحد الابواب الحديدية فانطلق الرجل مهرولا وهو يحضن عورته بيديه .

كان حمد يرقب هذا المشهد والغصة تكاد تخنقه وهو يتمنى لو تشق الأرض وقبلعه قبل أن يأتي دوره ويقف عاريا أمام هؤلاء الجلادين العديدين الحياء . وأحس بأن جسده بدأ يتصب عرقًا باردًا ، فسح جبينه مرة ثلث المرة وهو بعض على شفة جافة كاد يدمعها .

كان القبر دهليزا بارداً طويلاً ضئيل النور يفضي إلى باحة ضيقة يتحرك فيها عدد من الجنود ، ويمرر مشارفها عدد آخر للمسح حراهم تحت أشعة الشمس التي بدت ساطعة دافئة ، وعلى باب الباحة الحديدي الداخلي كانت رزمة جديدة من الثياب تنتظر السجين المرتجف العاري، ثياب داخلية نظيفة وأن تكن قديمة وشبه بيجاما مقلدة كأنها جلد حمار وحشي وقطعة من نحاس شبكها السجنان في صدره وعليها رقم طويل لم يعد حمد يتذكره وربما عهد إلى أن ينداه .

وفي وسط الباحة كانت تنتصب كرمي وقف إلى جانبها جندي وفي يمينه آلة حلاقة ومقص دقيق شديد الدمان .

حاول حمد أن يتجاهله إلا أن الجندي نادى بشيء من السخرية :  
- موسناش . . . ورننت قهقهة ماجنة في جوانب الباحة ، ودوى صوت العريف يأمر الجندي الحلاق بالامراع .

جلس حمد بين يدي الحلاق يهدوء لم يعهده في نفسه ، فقد صمم على أن يتغذ شاريه من ذلك المقص الرهيب اذا هو تظاهر بالوداعة والاستسلام ، وإلا فان الأمر سيكلفه كثيراً . . .

للشارب يجب أن يسلم ، إنه الشرف .  
وعندما وقف ينفذ الشعر المتساقط على عنقه ومنكبيه ، تسلل إلى سجنه الجديد وهو يتحسس شاريه بشيء من اللطمأنينة والعزاء .

وما كاد حمد يعرف أنه في سجون « نيم » حتى كان القطار الرهيب ذو الكوى الحديدية الضيقة ، ينقله إلى سجن آخر ، لم يعد يذكر اسمه تماماً وإنما هو بلفظه « فونتغرو » ، ومن ثم إلى السجن الخشبي ليحملة في رحلة طويلة وبلقي به في سجون مدينة « بوردو » .

ها هو الان على شاطئ بحر الظلمات .

في انتظار رحلة طويلة نحو العالم الجديد إلى منافي الغويان في أمريكا الوسطى إن أخبار تلك المجهول الرهبة وأساطيرها تملأ السجون رعباً . ومع ان قلائل هم الذين استطاعوا أن يعودوا من تلك الرحلة الجهنمية المعونة ألا إن تفاصيل شقائها وفظائنها كانت تملأ أجواء السجون .

كانت التعليقات هنا على أشد ما تكون من الحزم والدقة والقسوة ، فالتحدث ممنوع لا كلمة ولا همسة ، وإذا اضطر السجين إلى مخاطبة سجاناه صفق مستأذناً بالكلام .

كان السجناء يجتمعون بكثرة متزايدة في مهاجع واسعة شديدة التحصين قوية الحرارة ، فالسجون في ( بوردو ) هي بوابات جهنم للغويان بل هي محطة تجمع النعساء، من كل أبناء الامم المستعبدين من حدود الصين حتى المغرب وقلب افريقيا وفرنسا نفسها .

إن بعضهم يكدر السهور والبعض الآخر السنين والثلاث بانتظار هورم ليشحنوا إلى مناطق الاشغال الشاقة والمتأني ، وانتظار وصول المركب الكبير المحمص لنقل اولئك المعذنين ، كانت ادارة السجون تستغلهم في صنع شباك الصيد ، فتقسمهم إلى فرق تتناوب العمل في بحر طويل تدلى على جنبائه الحويط السمراء الشديدة النعومة والمثانة ينتصب في وسطه مشرف أو أكثر يدرب ويبحث في هياج دائم وجوس .

أحس حمد مع هذا العمل بشيء من الراحة والهدوء اللذين كان يحس بأنه في أشد الحاجة إليهما بعد الأيام القاسية في المستشفى والاسفار المضنية في العنابر والزناقات المتجولة بين مرسيليا وبوردو ، وكان يبدو على شيء من الاستسلام الى القدر ، ورجا على بعض الرضى عن نفسه فهو سجين نتيجة أمره في معركة كان يدافع فيها عن حرية بلاده واستقلالها ، وهو لم يجبن أو يذل في المستشفى أو في المحكمة ولم يلتمس العفو أو الرحمة من فضله ، وكان يزيده اطمئناناً هذا السكون الشامل والسكرات الغفروضة على السجناء، فهو بطبيعته ميال إلى التأمل والاسترسال رغم هذا القيد الثقيل للشرس الذي يكبل قدميه ليلاً نهاراً ورغم ذلك الحسب الشديد الجاف كأنما هو قطعة من حجر طري ، ومع أنه أحس بأن اللقب الجديد الذي أطلق عليه - موشاش - كان للخبرة ألا أنه شعر في أحماق نفسه بأنه سيظل بذلك أشد اعتزازاً وحفاظاً .

و ذات يوم كان موزع البريد الوحيد في السويداء ينطلق رغم الثلج المساقط والزهر يرفي أزقة حي ( المشقة ) وقصر نجمة وفي جيبه رسالة من فرنسا .

كتب على زاوية منها :

المرسل ، حمد ذياب .

وتربعت المرأة العجوز ذات المندبل الابيض السميك قرب الموقد وقد  
شدت لثامها على شفثيها وانفها وراحت تستمع ، الى الموزع يقرأ لها الرسالة  
الوداعية بهدوء وصمت كئيب لا يقطعه غير انه خافتة او دعاء تخنقه عبرات كاوية .  
سيدتي الوالدة الحنونة ادامك الله آمين .

اقبل يدبك واطلب صفو خاطرك ودعاك يا امي الحبيبة ، وارجو الله ان  
يكون في عونك وان يلهيك الصبر الجميل الى اليوم الذي سنعود فيه باذنه تعالى  
الى ارض الوطن وننعم بقلقه الأهل والاحباب .

الصبر يا امي مفتاح الفرج وانت دائماً كنت تعلمينا ذلك وتشجعينا على  
تحمل مصائب الدهر ومتاعب الحياة .

واكتب اليك اليوم يا امي الحبيبة من المركب الذي سينقلنا في صباح  
الغد الى البلاد التي تقرر ان نقضي فيها مدة الحكم في المنفى .

نقلنا يا امي بالبحر الى فرنسا وفي فرنسا كنا ننقل من سجن الى سجن  
حتى وصلنا الى مدينة اسمها « بور دو » على شط البحر الكبير ، وبعد ان مكثنا  
فيها بضعة شهور صدر الأمر بنقلنا الى الغويان في اميركا وفي صباح هذا اليوم كان  
المركب الكبير يقف في وسط البحر كأنه مرايا للسويداء او اكبر ، وكانت  
الموج يضرب على جوانبه كأنه يضرب على جبل من حديد والرياح الباردة تصفر  
والغيم الأسود يغطي السماء . مرنا في صفوف طويلة والقيود في ايدينا من سجون  
القلعة حتى الميناء ، وكان الناس ينظرون الينا بشفقة احياناً وبخوف احياناً وكان  
اكثرهم يسير خلفنا باتجاه « البور » حتى الأولاد تركوا مدارسهم وراحوا  
يركضون حولنا يتفرجون علينا واكثرهم يستغربون هذا المركب من الامرى .

وفي جوانب الميناء كانت تربط طوافات من الحشب كل واحدة منها في  
حجم عشرين لوح او اكثر من الواح الدراس .

ركبونا فوق هذه الطوافات والحديد في ايدينا واصلونا الى سلام  
المركب وفي اسفل السلم كان بعض الجنود يقفون لفك اغلالنا قبل الصعود الى  
ظهر الباخرة .

و كثير منا بقي في يديه بعض قطع الحديد من العجلة ، و كنا نتعاون  
على فكها والتخلص منها ورميها في البحر .

وتجمع الناس على الشاطئ وهم يلوحون بايديهم ويوانيطهم ومناديلهم لنا  
بودعونا ومنهم من كان يبكي يا امي ، و كنا نحن نلوح بايدينا ونودعهم ، وبعد  
قليل يا امي سينزلوننا الى غابر السفينة وسنحضي في البحر شهراً او اكثر لا نشاهد  
غير جدران الحديد والسقف الحديد والأرض الحديد .

يا أمي

لا أستطيع ان أوصيك بكل ما يجول في خاطري وانما اطلب اليك ان  
تهتم بي الصغير الذي تركته يرضع والذي لا أعلم اذا كنا سنلتقي في هذه  
الدنيا ام لا . وان كان املي في الله قويا باننا سوف نلتقي جميعاً .

وارجو ان تبلغني البنت ان حمد يعزها وانه يتمنى لها كل خير وسعادة  
ولكن ربما طالت سفره فلا يجوز ان احجز حريتها ولأهلها الحيار في تزويجها  
لمن ترغب فيه رغم اني كنت اتنى ان تكون نصيبي .

يا امي الحبيبة :

ارجو ان تحملي بشجاعة غياب حمد بعد ان فقدت والذي وحمود ، وان  
لا تقطعي الرجاء من عودتي ، واني واثق من الله سوف يستجيب دعائي ودعاهك  
في اللقاء .



وربما ألح عليك يا أمي بعض الأهل والاصدقاء لتقدمي طلبات استرحام  
أو لتذهبي وتستعطفي الحاكم .

اتمني يا أمي ان لاتتذلمي لغير الله ولا تستعطفي غير الله لانني لم أقم بهول  
الله بأي حمل يخجل بالشرف والناموس .

يا أمي سوف تصلك هذه الرحالة والناس في السويداء على عادتهم يجرفون  
التلج عن السطوح القراية وهم يمزجون ويفرحون ، ويتنظرون مع هذا الكفن  
الأيض عودة الربيع الزاهر الأخضر الجليل ، ولي رجاء وثقة بالله تعالى بان قلبك  
يا أمي الحبيبة سيعود اليه الربيع الجليل الأخضر عندما يعود حمد ويلافيه الأهل  
والاصحاب بالأهازيج والحداء .

اقبل يدبك يا أمي الف مرة وسلامي الى اخي الذي لا اعرف اسمه حتى  
الآن والى اخواني الصغيرات وعسى ان يردنا الله اليكم سالمين آمين .

حمد

## الفصل السابع

كانت الشمس الاستوائية المهرقة الالهة تتوسط السماء الشديدة الزرقة والصفاء . عندما اخذت الطوافات الحشبية تنقل المنفين الجمعد ذاهبة آية بين الابرة والباخرة التي كانت تدوي وتنفث دخانها الابيض كأنما هي تلهث من رحلتها المملة الطويلة المرهقة .

واصطف السجناء في رتل طويل مزدوج وفي ظل حراسة مشددة وانطلق صوت حاد ينثر التعليمات وهو يتوقف بين الحين والحين متسائلا عما اذا كانت قد وصلت الى الجميع .

ومن ثم امرت قافلة الرقيق بالتحرك .

وتحركت الاقدام متناقلة وقد اخنتها رطوبة العنابر والانطواء، وتمايلت الاجساد والرؤوس في وسن وخمول وتدلالت الابدني متواخية كأنها خرق طويلة من قماش وهي تمسح في حركة بطيئة دائرية حيناً بعد حين الجباء التي بدأت تنضع بالمرق اللزج

كان الطريق مرأ يكاد يكون مظلماً رغم الظهيرة وقد انتصبت على جانبيه جدران عالية من جذوع وفروع باسقة تدلت منها مئات الجبال والالياف

معلقة في الهواء او مخفية في احضان الاشجار السامقة او غارقة في جنباتها بين  
المشم والاغصان اليابسة المكدسة .

كان الجو حاراً خانقاً بالرغم من الظلال الوارفة عندما تلبدت الفرجات  
السماوية التي كانت تبدو احياءاً من خلال الاشجار وانهمرت الامطار سخية فاترة  
الا انه سرعان ما عاد الى السماء صفاؤها ورونها ، وسرعان ما عاد الى الشباب  
المبللة والأرض المكشوفة النادرة شيء من جفافها .

توغلت القافة الحرساء في سيرها الكثيب المتناقل خلال الممر الضيق  
الكثيف الظلال يمزها صوت حارس معربد او يثير انتباهها واستغرابها واحياناً  
فزعها قرد يقفز في ضوءه وصخب من فوق رؤوسها وافعوان ضخيم يتدلى  
ويتأرجح في نهم وتكاسل .

وانفرجت الغابة العذراء عن باحة واسعة من الارض العراء تطوقها من  
كل جانب الحضرة الكثيفة الداكنة العالية وتنتصب في ارجائها مجموعات من  
الأبنية والاسوار المتباينة .

هنا فيلات على غابة من الرشاقة والجمال تزهر شرفاتها بالازاهير والمظلات  
المتعددة الالوان ، وييسم قرميدها الاحمر الذي زاده مطر الظهيرة نظافة ورونقا ،  
وقبور من نوافذ بعضها رؤوس نسوة بشعورهن الذهبية او الفاحمة وهن يتطلعن  
بمزيج من الاسفاق والشهامة الى القافة الطويلة الذابلة .

وهناك سور ضخيم بلا كوى يرتفع بضعة امتار وتلتصق فوقه ألوف من  
قطع الزجاج المختلفة الالوان والحجوم من بقايا قناني النيد ، وهي تبدو على غابة  
من الشراسة ، وكأنها انياب وحش اسطوري يفتتح فكه الرهيب في الجوالواسع  
بانتظار فريسة تهبط عليه من السماء .

وهناك ثكنات ضخمة متباعدة ومتقاربة تلمع الواح ( الزنك ) في سقفوها

نحت اشعة الشمس فوق كوى ضيقة عالية تشتبك فيما قضبان الحديد الثخينة ،  
وترتفع خلفها وحولها ابراج عالية ضيقة تطل منها حراب وبنادق ووجوه بادية  
التجهم والعبوس .

صرت البوابة الحديدية الضخمة وهي تفتح على باحة مشكوفة واسعة  
وبدأت القافلة تدخل في سكون وذل ، وراح بعض ضباط الصف يوزعون عليها  
الارقام النحاسية الضخمة ويشبكونها فوق الصدور المتأججة حقداً ومرارة ، ومن  
ثم انطلق صوت رهيب خشن يوزع التعليمات الجديدة ويأمر الحراس بسوق  
المساجين الى العنابر المخصصة .

وما عتمت الساحة ان عادت خلاء هامدة في حين بدأت ضجة خافتة في  
العنابر الواسعة القريبة ، يتخللها صراخ حائق او تهديد .

قبع حمد فوق بطانته السمراء في زاوية من زوايا المجمع الواسع مجلج  
حذاه واجما ويستعد للاستراحة بعد ان قضى في نعشه المتحرك شطراً من الزمن  
لم يعرف كم طال وبعد ان سار هذه المسافة المرهقة الرهيبة بين الميناء والمعتقلات  
مثقلاً بذلة الامر غارقاً في دوامة هائلة من الافكار السوداء ، وراح يتفرس في  
وجوه رفاقه وقد القت على بعضها الكوى الضيقة العالية حفنة من ضياء الاصيل .

كان اكثرهم من المغاربة بوجوههم السمر الواضحة السمرة وآثار الوشم  
الازرق على الذراع والوجه ، وكان الباقون من أمم شتى ومناطق شتى بقامات  
مديدة او قصيرة وشفاة ضخمة منتفخة اوراقية قاتمة وعيون مشقوفة مائلة  
وخدود نائثة .

وقدر حمد عدد رفاقه في هذا المجمع في حدود المئة وراح يراقبهم وهم  
يفرشون الأرض الحشبية ببطانياتهم استعداداً لليل الذي بدأ يقبل .

وفجأة صر المفتاح الضخم في الباب الحديدي وانفتح على حلة ضخمة

بحملها جندبان وعدد كبير من الصحون النحاسية الصغيرة راح احد الجنود يسكب فيها بعض المرق الساخن .

وزعت الصحون والملاعق على السجناء ثم اغلق الباب من جديد واختفى وقع اقدام الجنود مع آخر اشعة الشمس في المهبج .

حرك حمد المرق الاسود ورفعته الى انفه بشمه ، انه شيء من العدس ولكن رائحته لا تشجع فلعل مذاقه مقبول ...

ورفع المعلقة بتفحصها قبل ان يقربها من فمه ، فلم يستطع ان يميز فيها العدس من المرق وحاول ان يتحسسها في الظلمة الخفيفة بيده الا انه عاد فادخل طرف المعلقة الى فمه بشيء من التردد والتقزز وراح يضغ الجبات النادرة بشيء من الحذر خوفاً من الحصى التي لم تكن غريبة عن مطابخ السجن وتوقف فجأة مرتبكاً وقد أحس بشيء بل اشياء تدحلق بين اسنانه لا هي عدس ولا هي حصى او تراب .

أعاد المعلقة الى الصحن وكاد يصبق فوقه الا انه تحامل على نفسه وابتلع بكثير من الجهد ما في فمه من مرق وعدس وسوس .

وتطلع حوله فرأى بعض رفاقه وهم يغرفون ما تبقى في صحونهم ، في حين بقيت صحون كثيرة كأن بدأ لم تمسها وقد تمدد اصحابها وهم يتحدثون بصوت خافت كأنه همس او يعلقون ابصارهم في السقف الحديدى ويسبحون في عالم من الذكريات .

وانطلقت صرخة اعقبتها شتيمة وقد وثب احد الرجال وهو يدوس برجله العارية عرقبا كانت تحاول ان تفر هاربة وتختفي بين شقوق الحشب .

وساد هرج وتساؤلات اعقبها جو من الحوف المزوج بكثير من

الاشمئزاز وانطلق الرجال يقلبون اغطينهم ويفتشون بين الثقوب عن تلك الحشرات الملعونة الغادرة .

وتوقفت حركة التنفيس عندما انقض من احدى الكوى خفاش كبير كأنه الغراب يضرب بجناحيه الهواء وينقلب كالهلولون يتعلق حيناً بالسقف ويلاً المهجع بجفيف جناحيه احياناً كثيرة .

وعندما بدأ بعض الرجال يحاولون الاستسلام الى النوم كانت افواج البعوض تطن طنباً مزعجاً مرهقاً وكانت خراطيمها تلذع كلوية محرقة ، ومن ثم تفر هاربة او تسحق تحت كف ضخمة حاقدة ، ظلت تقربص بها فترة من الزمن بصبر عجيب .

كان الجو حاراً خانقاً توبده انفاس الرجال في المهجع وروائح عرقهم وأحذيتهم ضيقاً وانقباضاً ويهيمن فيه القلق والأرق والانتفاضة الحائقة المفاجئة والشتائم الحافطة .

وكان حمد يرقب بعينه قمل رفاقه فوق اغطينهم وحركات ايديهم وهي تهوي على الحد او على العتق ، وارتفاع ساق بقعة في الهواء تطرد بمنق صرخ او مكبوت حشرة لا يدري ما هي أو ذلك الخفاش الذي راح يتلوى بعض اقدامهم ومن ثم بالتهويم الجهلواني في فضاء المهجع الدافئ .

ورويداً رويداً استسلم بعضهم لنوم ثقيل او مقلقل وظل الباكون في محاولاتهم اليائسة للاغفاء وقد ارمقت اجفانهم مطاردات الخفاش والبعوض وضغط الذكريات المشوشة والتفكير في غيب الغد الاسود المرير .

ومع خيوط الفجر بدأ جرس يقرع قرعاً عنيقاً متواصلاً ، وبدأت المهجع تفتح والحراس يتنادون والتعليقات الحافظة توزع هنا وهناك مجزوم وخشونة .

وانطلقت فرق السجناء ، فرق من اربعة افراد الى اثني عشر يصحبهم حارس مسلح او اكثر دون ان يسمع لهم بغسل وجوههم ودون ان تقدم لهم كسرة طعام .

وفي الطريق نحو الأبواب الخارجية كان الحارس بشرح لهم المهمة الجديدة والوضع الجديد :

هذه الجزيرة كلها معتقلات ، كثيرون حاولوا ان يهربوا الا انهم اضطروا الى العودة لأنهم لم يجدوا لهم ملجأ غير الغابات بوحوشها وأفاعيها وحشرات السامة . وبعض السكان المتوحشين الذين لا يقبلون بينهم الرجل الغريب ، ولم يجدوا ما يأكلونه الا بعض الثمار البوية التي كانوا يعيشون عليها الأيام الأولى ثم يبدأ الجوع فالموت البطيء ، فالاستسلام .

العقوبات هنا قاسية وزنانات منفردة وحديد وأحياناً الموت ، والطاعة هي افضل وسيلة في حياة المعتقل ...

وعلى مقربة من الأبواب الخارجية كانت الفؤوس والحبال والأحزمة الجلدية توزع من المستودعات على فرق المساجين الذين كان يسوقهم حراسهم نحو الأدغال القريبة اللامتناهية .

ما كاد حد يجتاز البوابة الحديدية الجانبية مع رفاقه الثلاثة والسبعان حتى وجد نفسه يجتفي وسط الرطوبة والظلال ...

— اتبعوني ...

صرخ الحارس بصوت منخفض وهو يتلفت بحذر وارتباب وسار الرجال الواحد خلف الآخر في صمت عميق ، يد تسند الجبال والأحزمة الملتفة حول الكتفين ويد تحمل الفأس الرهيفة الثقيلة .

بدأت الأفكار السوداء تهز حد هذا وتغريه بان يضرب ضربة واحدة  
واذا هو ورفاقه طلقاء في الغابة العذراء .

الغاس رهيفة ماضية ، والغابة واسعة ظلية ولكن ... مرعان ما بدأت  
تلك الأفكار الدموية تتلثمى كلما تقدم الموكب الصامت في احضان الغابة الرهبة ،  
فالسجن ارحم الف مرة منها واكثر بشاشة وانسا .

المشم والاغصان اليابسة تتكسر تحت اقدامهم فتتملح الافاعي الرافدة  
وتراجع أو تتناول باعناقها بتناقل وغضب ، وقد تتدلى متأرجحة في السماء باحثة  
بعينين واسعتين وغم لاهث عن فريسة ، حتى الطيور الغريبة الزاهية الألوان لم  
تكن تضيف على الغابة اي بهجة وهي تتحرك بيرودة وتملأ الفضاء باصوات حادة  
مزعجة كأنها صراخ طفل مرتعب .

هشيم وجبال متدلية والياب وجذوع سامقة يلز بعضها لزا وسما من  
اغصان واوراق داكنة وظلال كثيفة وافاعي وطيور غريبة تنعب ، وعرق لزج ،  
وغخطوات في حذر وريبة ، وأرق وجوع وعطش ، ومتاعب سفر مرهق في غناير  
حديدية رطبة ... كل ذلك كان يضيف على القافلة منظر الموكب الجنائزي .  
توقف الحارس و اشار الى جذع شجرة امس ضخم يرتفع عدة قامات  
في الهواء كأنه اسطوانة من رخام اسود .

وبدا يشرح للرجال طريقة العمل :

- يقف واحد من هذه الجهة ، وآخر من الجهة المقابلة ، ويبدأ للعمل  
وعندما تميل الشجرة يهرب الرجل وهو يصرخ محدراً بصوت عال غال ، بكل  
ما في قوته .

وانتقل السجان خلال الأشجار الكثيفة الضخمة الضاربة في السماء الى شجرة  
اخرى تبعد عشرات الأمتار ، و اشار الى اثنين من المساجين الأربعة بالعمل .



رفع حمد الفأس وبدأ يهوي بها على الجذع. الأملس الذي يبدأ بصلابة  
السندان ولكنه راح يزداد صلابة ومقاومة بعد كل ضربة .

رفع الفأس ومر بأصابعه عليها فإذا هي رقيقة ماضية ، وهز ساعديه  
تحسبها فإذا هما ، رغم الجراح القديمة والأسفار المتضنية والآلام المريرة، لا تزالان  
قادرتين على العمل وان كان العمل شاقاً متعباً . . . الخشب اذن هو الذي لم يكن  
يسمح للفأس ان تتل منه الا القليل القليل ، وبدأ الحرق يتصبب وراحت الكف  
تسمع الجبين باستمرار وأخذ السجان ينقل بين الفرقتين وهو يحث ويدمدم .

وقبل الظهيرة دوت صفارات العودة الى المعتقلات وبدأت تتوافد الفرق  
الجائعة اللاهته من شتى أرجاء الغابة لتلتهم قطعة من خبز جاف مجعم الكف وشياً  
من الرز المسلوق والمرق ، ولتستريح ساعة من الزمن او ساعتين ، ثم تساق بعدها  
على عجل الى استئناف اعمال الصباح ، ومن ثم تعود الى مرق العدس والسوس  
والمهاجع الواسعة الحافة ، حيث ترقع العقارب والحفاس وتطن امرب البعوض  
دهي قلح وتؤرق .

ومع الفجر كان الجرس يقرع بعنف فيدوي صدهاء في أرجاء المعتقلات  
والغابات اللامتناهية وتنطلق فرق الاشغال الشاقة لاستئناف اعمال الأملس بفؤوسها  
وحبالها واحزماتها ولكن دون ان يسمع لها بالغيل او بالطعام . . .

وعاد حمد رفيقه الى الشجرة ذاتها التي لم يستطيعا يوم امس ان يرمياها أرضاً . .  
وها هما الآن يستأنفن العمل بكثير من الجد والاهتمام وقد عز عليها  
ان يطول عصيانها .

والنفث حمد وهو يلهث في انجاء رفيقه الآخرين البعيدين وقد دوى  
صوت السجان بشتيمة اعقبتها ضربة من حذائه على مؤخرة واحد منها .

وأحس حمد بان الدم يغلي في عروقه وبان صدره اخذ يضطرم حقدًا  
وان الفأس تكاد لتقفز من بين يديه لتضرب ذلك الجلاد في وجهه ضربة  
واحدة ... ولكنه عاد الى عمله الشاق الرتيب وهو يتم بينه وبين نفسه : ان  
رفيقي رجل مثلي ومعه فأس ...

وأهوى بكل قوته على قلب الشجرة فاذا الشرر يتطاير منها وتكاد الفأس  
ترد الى جبينه وخيل إليه أن الجذع قطعة من حديد وأيقن أن العنف لا يجدي  
معه بقدر ما تجدي المواظبة .

وعند الأصيل كانت الشجرة العملاقة قبل ثم نهوي في فرقة هائلة وهي  
تحطم الأغصان الضخمة والجبال والأشجار الفتية وتفتع في وجه الشمس فرجة  
ضيقة طويلة لن تلبث أن يسدها تشابك الأغصان الوارفة والشجيرات النامية المتعانة  
تراكض السجان والسجناء وهم يصرخون بذعر وهلع وكأن العملاق  
المائل يهوى على أعناقهم .

وذمرت معهم طيور الغابة فأجفلت وهي ترعق، وتلملت الافاعي الشديدة  
الكل وقد ارتجت الأرض من تحنها وراحت تنساب هاربة أو ترداد تشبأ بأغصانها  
واحس حمد في المساء بمجوع ملهاح فاعمض عينيه وراح يكرع المرق من  
الصحن بلا توقف ومن ثم استسلم الى اغفاءة لذبذة مميقة كانت تغمرها أطياف وطن  
حيب ورنين مهباج وبسمة صبية سمراء واسعة العينين تسكبه على نافذة بيتها  
وهي تنتظر من وراء الغيب قدوم حبيبها ، وأغاثي أم نهدهد طفلها في السرير  
الحشبي القديم :

نام يا حبيبي نام خيئك واجمع يا سلمان ..

وعندما راح جرس المعتقلات يقرع بعنف مع خيوط الفجر الجديد كان  
حمد يتمطى وكلته يرغب في العودة الى النوم ، إلا أنه استطاع أن يقتلع نفسه

من بطانته في وثبة شابة وانطلق وهو بفرك عينيه نحو مركز النجم، بلا غسيل وبلا طعام .

وفي الغابة كانت ضربات حمد تنهال على جذع شجرة ثانية في مثل صلابة الأولى وضخامتها ، عندما أحس بكف تربت على كتفه ، فالتفت النفاقة شبه مذعورة وإذا هو وجهاً لوجه أمام سجانته وقد رفت بسمه مشفقة على شفتيه الجافتين :  
- من أي بلاد أنت يا رجل ؟ . . .

تطلع حمد بكثير من الاستغراب وهو يحاول أن يكتشف الغرض من ذلك السؤال ، ألا أن النظرة المشبعة من السجان جعلته يتم وهو يسمع العرق المتصب من جبينه وعقله :

- من سورية يا عريف ، من بلاد الشام . .

- كم سنة أنت محكوم بالأشغال الشاقة ؟ . . .

- بعشرين وعشرين نفي

- كم سنة قضيت منها ؟

- سنة واحدة تقريباً .

سكت العريف قليلاً وهو يتأمل ذلك الوجه الذي بدأ يشعّب والشاربين الغزيرين والفأس التي كانت تستند عليها ذراع بطل منها أثر جرح قديم ممبق ثم هجم وهو يفوق عينيه في عيني حمد :

- وهل تعتقد أنك تستطيع أن تهيئ التسعة عشر عاماً الباقية حياً وأنت تبذل هذا الجهد اليومي القاسي ؟

وأجاب حمد وهو لا يزال يمسح عرقه المتصب :

أعتقد أن الموت أهون علي من أن تضرب قفاي ضربة واحدة بهذا العريف .

وانتظر حمد مع فجر اليوم الخامس من وصوله إلى المعتقل طنين الجرس العنيف وطال انتظاره الا أن شيئاً من ذلك لم يحدث .

ومع أمراقة الشمس فتح الباب ووقف في أول الممر الطويل في المجمع أحد العرفاء وأمر السجناء بالوقوف والاصغاء ، ومن ثم راح يلقي التعليقات المتعلقة بيوم الأحد يوم الراحة الأسبوعية وهو يتوعد وينهدد بأقصى العقوبات لأي مخالفة أو سوء استعمال .

وقبل أن ينصرف كان أربعة من الجنود يفتحون المجمع وهم يحملون أكداً من الاقمشة الملونة ، وراحوا يوزعونها على السجناء الذين أمروا أن يظلوا في وقفة الاستعداد فوق بطانياتهم ، وحتى يتم توزيع الألبسة الجديدة بالإضافة إلى الأحذية الخشبية .

وما كاد التوزيع ينتهي حتى صرخ العريف صرخة دوى لها المجمع :  
- سلموا ثيابكم وأحذيتكم كلها والبسوا الثياب الجديدة فوراً . وبسرعة وراح العريف والجنود يرقبون المجمع وهم يوزعون الأوامر والتعليقات ذات البعن وذات الشال .

وراح الرجال يتعرون وهم وقوف ومن ثم راحوا يرتدون الالبسة الجديدة :  
بنطلونا وقيصاً من قماش واحد ذي دروب أفقية ضيقة حمراء وبياض ، وقبعة واسعة من القش .

والقى حمد نظرة على زيه الجديد ومن ثم على منظر رفاقه المتهوهم يكمون ثيابهم القديمة فكاد ينفجر ضاحكاً من ذلك المنظر الغريب وقد خيل إليه انه في مستشفى المجانين أو في كهف من كهوف الجن والغفاريات .

ومن جديد دوى صوت العريف بأمر بأن يحمل السجناء ثيابهم إلى المغاسل .

وفي باحة واسعة عالية الأسوار تجمع الجناء ، ويريق الاستغراب  
والاستهجان يشع من نظراتهم وبسمة مداعبة مكبولة ترف على شفاههم ، وتوزعوا  
على مغاسل واسعة مكشوفة وانهمكوا في تنظيف ثيابهم وهم يتمتعون أغاني  
خلفية كلها شوق وحنين وشكوى ، في حين تمدد بعضهم الآخر يجرسون ثيابهم  
الرطبة المنشورة فوق الأسلاك الشائكة .

أضيف إلى الغذاء قطعة جبن ، وسمح للجناء أن يتجولوا في البلعة  
الضيقة حول المغاسل ، فكان حديث وعناق وتعارف وسادت مهمة كدوي  
الحلية من حلقات متلاصقة متناجاة ، ارتفع في واحدة منها صوت خافت حزين :

وصلت بلاد جدي ما وصلها	وشفت عبادة ما بعرف أصلها
بلاد العرب لازم ان نصلها	ونلاقي العدا يوم الظرادا . .

## الفصل الثامن

مضت الشهور الطويلة بمة مرهقة ، جرس يقرع قرعاً غنياً مع الفجر ثم انطلق نحو الغابات العذراء بلا طعام وبلا غسيل ثم استراحة وغداء فعودة الى الاشغال الشاقة في الاحراش ، فحساء من عدس كربه المذاق والرائحة ، فاستلقاء فوق بطانية في انتظار لسعة عقرب وعضة خفاش وطنين البعوض وطعن حراها الدقيقة المهرقة السامة .

وفي اليوم السابع غسيل وحراة وقطعة جبن اضافية ، وذات يوم أحس حمد بأنه مقبل على عمل جديد ، فقد سار ذلك الصباح مع فرقة من اثني عشر رجلاً ونوغلوا مسافة غير اعتيادية في الغابة العذراء .

أمروا بالتوقف فالاصفاء الى التحليات الجديدة : طريق بعرض ثلاثة أمتار يجب أن يشق خلال الغابة لجر الاخشاب نحو الميناء .

وراح العريف يرسم الانجساء ويحدد نقطة البدء ويوزع السجاء فرقاً صغيرة متباعدة في خط واحد مستقيم .

وراحت الفؤوس تهوي فتقطع الجبلى المتدلية والشجيرات الصغيرة التحيفة والاعشاب المتشابكة ومن ثم تدوي ضرباتها رتيبة جافة فوق الجذوع . وفي غمرة العمل الشاق أحس حمد بأن حذاءه الحشبي الجديد يضايقه

مضايقة شديدة وقد أدمى عقبه بجده القاسي ، فانحنى بخلعه ويعود الى العمل حافي القدمين .

تقدم السجان وربت على كتفه وهو يتسم ابتسامته القدية المشفقة :

- اسمع يا دياب ، انت رجل كويس وانا اشفق عليك وأنصحك ، لا تخلع الحذاء من رجلك في هذه الغابات دقيقة واحدة : الأفاعي والعقارب والحشرات السامة كثيرة ، والتراب الذي يعلق بالقدم يسلخ جلدها مثل حروق النار ، وفي الغابة حشرات مثل البرغوث تغرز تحت أظافر القدم وتدخل تحت الجلد ، حتى العظم ، تفقس وتخرج منها ديدان تنقب الجلد وتسبب المرض الشديد وأحياناً تسبب قطع الساق أو القدم ...

فتح حمد عينين مشدوهتين وظن ان في الامر تهويلًا او اسطورة الا ان نظرات الحارس كانت صافية صادقة ، لم يقدم اليه سيكارة ذات يوم ويطلب اليه ان يستريح ويحدثه عن أسباب نفيه وعن أهله ووطنه وأمه وأخيه الصغير الذي لا يعرف اسمه حتى الان ؟ ! .

وطال العمل عدة شهور جديدة شاقة رتيبة لا يخفف من سأمها غير جماعة من القروء الحرّوق صاخبة مكشّرة عن أنيابها وهي تقفر رشيقة بسين الاغصان تتأرجح باحدى قوائمها حيناً وبذيلها الطويلة احياناً كثيرة ، أو تنلهي بتنظيف شعورها بعناية واهتمام في فرجة تغمرها اشعة الشمس الشديدة الدفء ، تحضن صغارها وتلاءها وتسمح لها بمحان وهي تتعلق باعناقها متأرجحة .

ما أسعدها ! انها في اوطانها وبين اهلهاء ليلهم وتصب . ولعلها تهزأ من اوائك العفاريث الغرباء الملونين الذين لا ينفكون عن مسح عرقهم المتصب وهم يلهثون في عبوس صامت في ظل السياط والشتائم .

ولم يندر ان يطلق أحد الحراس النار على أفعون من نوع (البوا) ،  
كأنه جذع شجرة فيتدلى وهو يفتح شدة الواسع المفزع ثم يسقط بجلبة رهبة  
فوق المشيم والاعصان اليابسة المكدة .

ولا تلبث ان تطل من خلف الجذوع السمراء وجوه نحاسية شبه آدمية  
أفزعها الطلقة المدوية فراحت تتطلع مذعورة ومن ثم تتطلق هاربة تصايح وهي  
تلمح من خلال الغابة الشديدة الكثافة عاربة ملساء كالابنوس تلمع تحت  
أشعة الشمس .

كان وجود هؤلاء الآدميين المتوحشين العرايا يثير فضول السجناء الذين  
كانوا يحاولون الاقتراب منهم الا انهم كانوا يفرّون مذعورين كأنهم يهربون من  
وحوش مفترسة أو من أرواح شريرة أسطورية .

ولم يستطع حمد ان يدرك مدى سعادة هؤلاء الزوج البدائيين الا انه  
كان يحسدهم على حريتهم الواسعة المطلقة وان كان يشيح بوجهه بزيج من الغيظ  
والحياء عندما كانت تلوح من بعيد النهود السمراء العاربة لتختفي في فراها  
الفجائي المذعور .

ومع الزمن شق في الغابة ممر جديد ظليل طويل ، تكومت على جانبيه  
الاشجار والاعصان والالباف وسمع للسماء ان تطل ولشريط ضيق من الارض  
ان تلتهم أشعة الشمس لأول مرة منذ الأزل .

شعر حمد بان عدد رفاقه يتناقص ، بعضهم لم يعد حتى الآن وبعضهم  
يتروى على المستشفى وهم يشكون الملاريا بين الحين والحين وحوادث العمل ومع  
ذلك فان فرق الاعمال لم تتأثر تأثراً ملحوظاً بذلك النقص فقد كانت الورش او  
الفرق تزود دائماً بوجوه جديدة .

وفي صباح مكفهر كان حمد ورفاقه يتوغلون في الغابة العذراء نحو الطريق



بل المر المستحدث ، وهم يحملون جبالاً ضخمة طويلة وعدداً من الاحزمة الجلدية والسيور المختلفة الاشكال والمقاييس وفأساً واحدة او فأسين .

أمرت الفرقة بالتوقف امام شجرة مملقة توسدت الارض منذ عهد بعيد ، على ما يبدو ، فقد كانت عارية من اوراقها وقد نمت حول جذعها الاملس المديد وتشابكت شجيرات واحشاب ، وحبال من الياف الاشجار وجذورها الهوائية الى درجة كادت تخفيها لولا ضخامتها .

وبدا العريف يوزع اوامره وتعليماته بهدوء ووضوح في حين كان السجناء يقفون على جانبي الشجرة بصمت وتأمل كأنهم يحرسون نعلش ملاق اسطوري امر حامل الفأس بتحرير الشجرة المقطوعة من كل ما يقشبت بها من نبات وعندما بدأت ضرباته نهوي متسارعة ، كان احد الجنود يدرب السجناء الباقين على ارتداء الاحزمة الجلدية استعداداً لجر الشجرة للحلقة .

هذا السير يشد على الصدر ، وهذا يربط بالكتفين ، وهذا يشبك في تلك الحلقة الحديدية الواسعة .

ومن ثم أعاد الشرح ثانية وهو يطلب من السجناء ان يقلدوا كل حركة من حركاته ...

وقفزت الى ذهن حد صورة خيول العربية في معسكرات دمشق وهو يشدها بالسيور الجلدية وحلقات الحديد والنعاس ، وهام الآن في طريقهم لأن يتحولوا الى حيوانات جر .

بفرقع الصوت فوق رؤوسهم أو على اقفيتهم ويصرخ بهم السجان مزججرا:

— هوس ... يو ...

تلقماً كما كان حمد يحث بغليه وهو يلوح فوق رأسها بالوسط ويضرب

به الهواء في فرقة مثيرة او بصرخ بها وهو يشجعها او يؤنبها .

— هوس ... يو ... —

وتذكر انه كان رحيما مع بغليه ، رفيقا بها وانه لم يعمد يوما من الأيام الى الانتقام او القسوة رغم مشاكستها العديدة والحران في اخرج المواقف فهل يجحد هؤلاء المساجين من حراسهم تلك الشفقة والرأفة التي كان يعامل بها حمد خيوله ..

لابدري .. ولكنه لا يزال يذكر ان احد الحراس في الشهور الماضية قد ضرب بجذائه قفا احد رفاقه وان اكثر السجنائين ان لم يكن كلهم يلوحون بالسياط وان كان استعمالهم لها جبراً قليل الوقوع .

وسوف يعلم حمد بعد حين ان عملية الجبر الآدمية هي عملية مستعذبة فقد كان المنفيون يقومون بقطع الاشجار الضخمة وتهديبها وتوضيبها منذ زمن بعيد وكانت تستقدم ازواج من الثيران بل من الجاموس المعروف بالبقر الصيني تقرن ازواجاً يمثل هذه السيور وهذه الحبال وتبدأ عملية الجبر بحثها السجناء بسياطهم واصواتهم وسوف يعلم ان الاستغناء عن هذه الثيران عن علفها ، والاهتمام بها ونقلها من بلاد بعيدة وتربيتها قد تم منذ عهد قريب ، منذ بضع سنوات ، بعد ان تأكد المعمرون ان السجناء يستطيعون باعدادهم الكبيرة بل المتزايدة ان يقوموا بهذا العمل وبعد ان ايقنوا ان المساجين يستطيعون ان يكونوا اكثر مرونة واسلم تصرفاً امام المصائب والعراقيل التي تتعرض سير العمل في المنعطقات الضيقة والمنحدرات ، ومن ثم فان هذا النوع من العمل هو نوع من الاشغال الشاقة وفي استخدام الرجال توفير واضح في الميزانية المخصصة لشراء الحيوانات المعدة للجر

وشحنها وعلفها وبناء المساكن المخصصة لها والاستفادة من الايدي العاملة التي كانت تخصص لحراستها ، والاعتناء بها وتنظيف زراعتها ...

وعندما كان الرجال ينتهون من شد الجبال الثخينة الى سيورهم الضخمة كان الحارس ير عليهم واحداً واحداً وهو يتأكد من وضعية كل قطعة يتفحصها بعينه ويشدها بيديه ويصلح من شأن ما يحتاج منها . وهو يتم مشجعا حينا ومؤنبا أحيانا .

وبعد التأكد من ان كل شيء على ما يرام ، امرهم بان يخلعوا تلك الاحزمة وان يكوموها امامهم ومن ثم عليهم ان يشدوها الى اكتافهم وصدورهم من جديد .

وتقدم نحو حامل الفأس بتأكد من تخلص الشجرة العملاقة من كل ما يعيق انزلاقها ، ومن ثم اصدر بعض الاوامر والتعليمات وراحت الفأس تضرب من جديد في اسفل الجذع نفسه لفتح على ما يبدو فريضة يثبت فيها الجبل الثخين الطويل الذي لا يزال مكوما الى جانب الشجرة كأنه بعض افاعي الغابة الرهيبة . ومع الفجر الجديد كانت الفرقة تتطلق نحو الشجرة التي بدت جاهزة للجر منذ اصيل الامس ، تكوم الرجال حولها وراحوا يلفون الجبل الثخين حول قاعدتها ويثبتونه في الفرضات وهم يتصايحون :

— هات من هنا ... خذ ... لف عندك ...

في مزيج من الفرنسية والعربية فقد كانت الفرقة ، كل الفرقة من العرب ذوي العينين السوداءين الواسعتين .

ثم راحوا يثبتون الاحزمة الجلدية والسيور والحبال التي أمضوا بعض نهار أمس وهم يتحرون على استعمالها .

تقدم العريف بتثبيت من وضعية تلك الجبال والأحزمة ومن ثم راح  
يقرب الرجال واحداً وراء واحد في فرقتين تألفت الواحدة منها من ستة رجال  
تماماً كما تربط الخيول في العربات العسكرية الثقيلة المحملة .

— اسمعوا ... هذه الشجرة ضخمة ولا يمكن جرها دفعة واحدة يجب  
ان ترحل ثم تسحب شبراً .. شبراً ... مرة واحدة وشدة واحدة تشدون  
عندما اصرخ ، هوس ... يو ...  
انتبهوا ... استعدوا ...

تثبت الرجال بالجبال المشدودة الى سيورهم والى الجذع العملاق وهم  
يحسون بأنهم على ابواب مرحلة من الأشغال الشاقة شديدة القساوة ، يرغم فيها  
الانسان على الانحدار الى مربقة حيوانات الجر .

رفع العريف يده ملوحاً بها في الهواء وصرخ صرخة حادة طويلة :

هوس ... يو ..

وتحرك الرجال تثبت احذيتهم الحشية القاسية بالأرض وتشد سواعدهم  
وابيدهم شداً عنيفاً على الجبال ، وتنحني مناكبهم في حركات امواج البحر  
المضطرب وتقلص عضلاتهم ، ويحقن الدم في وجوههم التي ازدادت حمرة وقسوة ،  
ويتفجر العرق غزيراً لزجاً كريهاً ، وتنطلق من الصدور والشفاه همهمات كأنها  
خوار خافت بعيد .

توقف الرجال — الثيران وتطلعوا الى الوراء بعيون حاقدة وصدور  
لاهثة ... كانت الشجرة للعلامة جافة وكأنها هي مسمرة في الأرض ، وقد خيل  
لبعضهم انها تزداد تشبهاً والتصاقاً بها .

تقدم العريف من جديد يفحص الشجرة المستقيمة ويتأكد من انها قد  
نحررت من كل ما يعيق بها ويجركتها ، ثم عاد يأمر الفرقة بالانتباه والاستعداد .  
— هوس ... يو ...

وسد الرجال من جديد وهم يتصاحجون ويبحث بعضهم بعضاً ، وهم يتجنبون ان تهوى السياط على اقفيتهم وقد بدأت لفرقع في الهواء مهددة ، وارتفع صوت العريف مزججراً :

- شد ... اسحب ...

تقلقت الشجرة الضخمة الجافة . وجمع لركتها البطيئة ما يشبه صوت الانهيار المفاجيء الخفيف ، وانزلت قدما او اكثرو راحت تثبث من جديد بالارض البكر .

- يكفني ... الى الغداه ...

وعندما بدأ الرجال يخلعون احزمتهم ويتخلصون من الجبال ، كانت بعض الأفاعي تنسل الى جحور جديدة وكانت العقارب وعشرات الاجناس من الحشرات والهوام تطلق هاربة في شتى الاتجاهات .

وفي اليوم الثاني كانوا يقطعون بعض الأغصان الأسطوانية لتسهيل انزلاق الجذع الجاف الضخم وهم يشدون ، بايعاز من العريف ، بالجبال والسيور شداً ابقاعياً .

وفي نهاية اليوم كانت الشجرة قد تركت وراءها ما يشبه اللعد يجدران من اعشاب وجذوع والياب ، وقد تكدمت حوله الجذور والأغصان الحديثة القطع .

وفي الأيام التالية كانت فرقة الجر تتقدم شبراً شبراً وهي تسحب خلفها العملاق الهامد الأملس لتسله الى فرقة اخرى تمر كرت في قلب الأدغال .

وهكذا راحت هذه الفرقة من السجناء تتابع حملها اليومي المضي فجر احمالها الثقيلة لاهنة مجهدة واسباح السياط والسجون المنفردة المربعة تتراقص امام اعينها المسهدة .

وقد يحدث ان تكون الشجرة المقطوعة المن خشبا واخف ضخامة وفي

هذه الحال كان على الفرقة ان تحملها على اكتافها ، كي لاتتخفش ، في رقل احادي او مزدوج ومن ثم كان عليها ان تتقدم في كل خطوة بايعاز وان تتوقف بايعاز .

- هوس ... يو ...

وتقدمت الفرقة ذات يوم في ارض منحدره كانت قد بلطها الأمطار الاستوائية السخية ، وفجأة زلقت بعض الأقدام رغم الحذر الشديد وراحت الفرقة تترنح وهي تتعاضى ان قدسحق تحت حملها الثقيل .

وراح الرجال والحرس يتصاحجون وصاد المرح والرعب ، وانطلقت الاوامر بالتوقف حادة حازمة الا ان التراجع لم يبدأ والأقدام لم تستطع ان تثبت فوق تربة المنحدر الرخوة ، ولذا واحد ثم آخر بالفرار وانهارت عزائم بعضهم ، واذا بالجدع يوي في ضجة رهبة بين الأنين والصراخ وصيحات الفرع الداوية .

اعطيت اشارة الاستغاثة : خمس طلقات متوالية اعقبها خمس طلقات اخرى واذا بالفرق القريبة لتراكمض لاهثة بين الأدغال في اتجاه صوت الرصاص وقد اختلط السجناء بالحراس في شيء من الفوضى الصاخبة .

كانت الشجرة الضخمة الملساء مستلقية هامدة فوق عدد من الرؤوس والأيدي والأقدام المهشمة وقد غرزت مقدمتها في الأرض الرطبة .

واختلطت صرخات الاستغاثة والأنين المتواصل باوامر الحراس الحادة واصوات الرجال وهم يتنادون لرفع الجذع الرهيب المحرم .

كانت غرفة حمد في المستشفى تطل من بعيد على السور المرفوع المضخم  
حيث للسمع الانبأب الزجاجية الملونة الحادة الشرسة ، وحيث تتحرك مئآت  
من المخلوقات الناعسة وتختفي في ظلال الرعب والجوع والارهاق والحزن .

وخلف السور والابراج تمتد الغابة العذراء داكنة جامدة ، تستلقي أشعة  
الشمس باسترخاء فوق سطحها اللامتناهي ، وفي الافق البعيد العالي لا شيء سوى  
السما زرقاء صافية لاهبة .

وتحرك الرأس الفارق في الضهاد ، في جهد واضح ، وتطلعت عينات  
بأجفان قائمة منتفخة تتفحصان باستغرابوالم المهجع الجديد المغمور بأمواج النور  
الدافقة والهواء الدافئ الطليق .

وبدا حمد يستعيد مأساة الامس . الشجرة تترنح فوق الأعناق ثم تهوي  
فتسحق وتهشم .

وحرك ذراعيه تحت الغطاء الأبيض فنحركنا ببعض الصعوبة وحرك أقدامه  
واحدة واحدة فأيقن أنها سليمة الى حد ما ، وتحسس أعلى ساقيه فاذا بكفه  
تصطدم بقطع من الحشب تشده شداً وثيقاً ، وعندما حاول أن يدير قدمه خيل  
اليه أن ساقه قد انحوت إلى قطعة من حبر وأحس بالأم صارخ في أضلاعه، فأنفض

عينيه وهو يخنق أغات توددت في صدره وراح رأسه يتلوى في حركة بطيئة وفوق  
اجفانه سحابة من تبرم ويأس .

ومن جديد قسح عينيه وراح يحوب بنظرائه المتعبة جنبات الغرفة  
المشرقة الواسعة .

كان السقف في بياض الياصين وقد تدلى منه مصباح وكانت الجدران  
نظيفة لماعة لكاد تشرق في وهج الأشعة الدافقة ، وفي زاوية منها علقت صورة  
لملك بجناحه الناصعين يبتهل بخشوع ، وعلى شرفات النوافذ الواسعة المضمورة  
بالضياء اصطفت بعض المزهريات وقد تفتحت فيها براعم دائمة الابتسام .

كان حمد يظن نفسه حالماً يحوب عالماً آخر عندما ايقظته أنه عميقة اعقبها  
حشرة متقطعة في السرير المجاور .

كان الرجل جريحاً على ما يبدو فقد كانت العصائب تغطي رأسه وذراعه  
المتددة فوق الأغنية كأنها قطعة من خشب الحور ، ولعله بعض رفاق مأساه .  
لم يستطع أن يتبينه ، فقد كان غارقاً في الضمادات كأنه في كفن حتى  
عيناه كانتا تحتفيان تحت الاجفان الداكنة الحمراء المتورمة .

وخلف سرير جاره الجريح امتدت امرأة أخرى لم يستطع أن يتأكد  
من مددها ومن وضعية مرضاها . أما جاره الآخر فكان يبدو أحسن حالاً وإن  
كان شعوبه وهزاله مخيفين .

وتبه حمد إلى وقع خطوات ناعمة وحفيف ثوب فضفاض يتقدم من  
سريره وأدار رأسه بصعوبة صوب القادم الجديد ، وراح يتأمل اللبقة الواسعة  
كأنها شراع يرسو فوق الثوب الواسع بلون البحر الهادئ ، والوجه الصبيح  
الطلق يسمته المتحفظة ، ونظرائه البريئة المشبعة ، كم هو شبيه هذا الملاك  
بلاكه في مستشفى السويداء بشعره النعبي وعينه الزرقاوين بلون السماء . لعله  
هو ؟ . قد يكون . . .



وعندما اقترب وانحنى فوق رأسه باسمأ بدت العينان سوداوين واسعتين  
أما الشعر فلم يبد منه غير خصلات شديدة النعومة فاحمة لامعة كالابنوس .  
- بونجور دياب .

حاول حمد أن يمز رأسه في حركة شكر وردحية وادار لسانه ثقبلا في فمه :  
- بونجور . . .

ولم يستطيع أن يزيد على ذلك كلمة واحدة وقد تذكر فجأة أن للراهبة  
وللممرضة اسماً خاصاً بها غير مدموزيل ولم يحاول أن يجهد نفسه في التفتيش عنه  
فقد كانت الآلام الشديدة تعصره رغم أنه المهتنة .  
- أنت كويس . . . الحمد لله بالسلامة .  
- شكراً .

وقسح فمه بعض على ميزان الحرارة في حين كانت اليد الناعمة تشد على  
معصمه شداً رقيقاً عميقاً الحنان .

وتقدم ضابط بأمرطته النعنية الثلاث وقامته المديدة والوجه الأشقر  
الحليق، وقد تركزت فوق عينيه نظارتان على غاية من الصفاء في اطار ناعم من ذهب  
تحدث الضابط والممرضة حديثاً غير قصير لم يفهم منه حمد شيئاً كثير  
فقد كانت لهجة الضابط كزقزقة العصافير المرحية الا انه استطاع أن يفهم منها  
أنه هو محور الحديث وأن جراحه قابلة للشفاء .

وعندما انتقلت الراهبة الى السرير المجاور كان حمد يحس بشيء من  
العزاء والراحة .

كان الجرس الرهيب يقرع من بعيد قرعه المتواصل المعتاد مع ضوء  
الفجر ، عندما أحس حمد بوقوع خطوات ثقيلة تقترب من مروره ، ومن ثم  
تقدم جنديان يحملان محفة مفتوحة ، خلف ممرض لا يزال يتشاهب وهو يفرك  
عينيه ويتحسنى ازرار مثوره الناصع البياض .

وانحنى الرجال فوق السرير المجاور يلقون الجثة الهامدة بالغطاء الابيض ويلقونها بشيء من الاعتناء وكثير من البرودة فوق المحفة ومن ثم يتطلقون بها في صمت .

أشاح حمد بوجهه وهو يحس بان مأساة قد انتهت لتبدأ مأساة اخرى الى جزاره... ما أقسى الموت في ديار الغربه لا دمهعة تذرف ولا نحيه وداع والاهل في الوطن البعيد... قد تكون الام لا تزال تنتظر وهي تغزل الصوف وتغني في اعماقها اغاني الشوق والحنين مثل ام حمود ، عندما يكون التواب في بقعة نائية مجهولة من بقاع العالم ينال على اللجنة المشوهة الهامدة .

وقد تكون الزوجة تحلم باللقاء في فافذة بينها المغمورة بضوء القمر ، وقد يكون الاطفال الذين كبروا يلذون البيت مرحاً وصخباً وهم يرجون بعودة والدم المرتبة ، عندما تكون الحفرة المرتجلة قد اختفت في ظلال الاعشاب الاستوائية السريعة النماء .

ومن يكون هذا التاسع ؟ قد يكون صديقاً جديداً او رفيق عبودية ، وقد يكون من بلاده هو ومن أي بلد من بلدان العالم المستعبد... انه لا يدري .. يتحنى ان لا يكون هو ( مي عياش ) الذي كان دائم الحنين الى طفليه الصغيرين في قرية من قرى الريف المراكشي والذي كان يتم دائماً في اوقات الاستراحة النادرة :

يا ولدي يا فطيمه      حرام تعيشي بتيمة  
بكره      أبوك      يعود يا بنيه . . .

لم يستطع ( مي عياش ) ان يقص على حمد تفاصيل قصته ، فالرقابة والريبة واوقات الراحة القليلة القصيرة لم تكن تشجع على الاسترسال في الاحاديث ، الا انها كانت شبيهة بقصة حمد في اعماقها : نعمة بمحاولة نفس خط

امدادات الجيش الفرنسي لصالح الثوار في مراکش ، فحكمة صورية فنفي وأشغال شاقة .

كان مي عياش رغم تظاهره بالطاعة والاستسلام على غاية من الشجاعة والحساسية ، دّيناً لا يفتر عن ذكر الله وان كانت الفرص المتاحة للصلاة متباعدة ومع ان قبلته كانت في الغالب قبة تقديرية الا ان ذلك لم يكن يخفف شيئاً من وجدّه وحماسته الدينية .

حاول مي عياش كثيراً ان تسمح له ادارة المعتقل باقامة صلاة الجماعة في فترة استراحة يوم الجمعة .

الا ان محاولاته ومحاولات امثاله ذهبت كلها عبثاً . . . . . انهم أشقياء لا تصلحهم العبادة والتضرع بقدر ما يصلحهم العمل الشاق الدائم في الغابات العفراء ! . . .

وتذكر أحمد الهدية الفريدة التي وزعها مي عياش على رفاق المهجع في اعقاب صياحه الماضي في جو يزيد العمل المرهق المتواصل اختناقاً وضيقاً ، فقد وصلت اليه من اهله علة بجعم الكف من الزيتون الاخضر ، اهي ان يحتفظ بها لنفسه ، بل راح يفرقها حبة حبة على رفاقه :

زيتون في معتقلات الغويان . . . شيء لا يصدق ! . . .

وتذكر حمد ان رفاقه راوحوا يعضون الحبة مضغاً طويلاً يتلففون به كأنهم في جلسة من جلسات القنات في اليمن ، اما هو فقد دس الحبة في يده ليشمها مرة بعد مرة قبل ان ينفق . . .

اما جاره الجديد ذوالوجه الشاحب الحزين مي مسعود فقد كان يتكلم غالباً على حافة سريره بسند رأسه بيد مرتجفة ويبسح في شبه غيبوبة تنتهي

بارتعاش متقطع مفاجئ، يمتزله حتى السرير وترتجف الأغشية ارتجافاً مفزعاً ،  
وينطلق من الفم المزبد هذيان غريب ، مزيج من لهجات فرنسية وعربية وكلمات  
مبتورة او مشوهة لا احد يدري لها معنى او اصلا .

انها البرداء .. الملايا ..

لم يسلم منها احد حتى الحراس الذين كانت تشاهد فاموسيا تم من الكوى  
الصغيرة المغطاة بشريط المنخل ...

حاول حمد غير مرة ان يجادته الا ان الرجل لم يكن بحسن التعبير باللغة  
العربية ، حتى اللهجة المغربية الجزائرية التي كان حمد قد تعودها كانت ايضاً  
صعبة على مي مسعود ، وكان يود لو استطاع ان يبادل جاره الحديث بالفرنسية .  
واستطاع حمد ان يفهم منه خلال الفترة الطويلة التي قضاها الى جانبه  
بعض الخطوط العريضة لمآساته .

انه جزائري ، واكثرية المفضوب عليهم في الغويان الفرنسية جزائريون .  
انهم في نظر القيادات العسكرية الفرنسية اجمالاً غير انضباطيين ، رؤوسهم كبيرة ،  
وطباعهم شرسة ، والجزائر بالنسبة لفرنسا جزء من ارضها ، وشعبها جزء من الشعب  
الفرنسي ، وخدمة الشعب الفرنسي الزامية على الشاب الجزائري وهو يساق الى  
الخدمة سرفاً وإن لم يكن متحمساً ولا مؤمناً بتلك الخدمة . وقد اكتشفت استخباراتهم  
ان بين العسكريين منظمات سرية تدعو الى استقلال الجزائر عن فرنسا وابرار  
الشخصية الجزائرية ، وكانت هذه التهمة كافية لان تحمل الى المنافي تلك الأعداد  
الضخمة من الشباب ، ومع الزمن بدأ حمد يحس بالروابط العميقة التي تربط هؤلاء  
المثقفين المعذنين ...

شعوب مغلوطة بحكومة بقوة السلاح تريد ونحاول ان تكون حرة  
فتلقى في سبيل ذلك ما لقلقه من دمار وتشريد ودماء ودموع واضطهاد .

ومع الزمن بدأ يحس بان خصم هؤلاء المنفيين جميعاً واحداً ، وان مصدر مصائبهم ونكباتهم واحد .

وسمح لحد بان يستعمل العكاز فكان يقضي اكثر اوقاله متنقلا بين المرضى يؤاسهم ويستمع الى احاديثهم وتغنياتهم ، وكان يحس بشيء من العزاء والسلوى وهو يتبادل الأحاديث والذكريات مع الصطاييفي زميله في مأساة الشجرة المجرمة والذي يعتقد انه الوحيد الذي لا يزال حياً مع حمد من الرفاق الثمانية الآخرين .

ولاحظ حمد بكثير من المرارة ان ذراع الصطاييفي اليمنى قد بتوت وانه كان حزينا لا ينسم ولا يلو .

وعندما كان حمد يحس بالملل من النظر الى انياب المعتقل الزجاجية والأبراج المتباعدة المرتفعة ، كان ينتقل الى النافذة المقابلة المطلة على الطريق الموصل الى الميناء البعيد المخفي خلف الهضاب المكفنة بالحضرة الداكنة .

كان الطريق بل المر مقلراً في الغالب ، الا انه كان يغص احيانا بقوافل السجناء بقبعات القش الواسعة والثياب الغريبة المخططة كأنها جلود الحمرة الوحشية يسوقهم حراسهم نحو الميناء لنقل الأرزاق على ظهورهم او في عربات صغيرة يدفعونها او يجرونها بانفسهم .

ويبدو انهم كانوا على شيء من المرح فقد سمع لهم ان يغنوا ويتضحكوا وهم في طريقهم نحو الميناء .

فالمحظوظون من السجناء هم الذين كانوا يدعون الى رحلة السخرة التي كانت شاقة ككل الأعمال الشاقة في الغابة العذراء الا ان هناك تعزية كبرى في التطلع الى البحر الواسع الواسع الذي كانت تخفي وراءه بعيداً بعيداً رائحة من الوطن الحبيب ، والى المركب الذي وباعرج في رحلته الطويلة على ديار الأحبة

والأهل ، والى الناس الذين يتطلعون من بعيد الى هؤلاء العفاريت الموزين وهم منهمكون في العمل .

و ذات يوم كان حمد يتكئء بيد على حافة للنافذة وبالثانية يشد على عكازه وهو يتطلع عبر المر الطويل صوب افق الميناء ، عندما ملأ أرجاء الغابة القريبة خوار فظيع من البقر وجلبة عالية ومـسـراخ ونداءات مختلفة اللغات والأصوات والأبعاد .

كان القطيع - على ما يبدو - قد قرن بعضه الى بعض بمجال طوبئة، وكان يسير في خوف وحذر شديدين لا يتحرك الا بالحث والعصي الطويلة التي كانت تنهال على قرونه وظهوره ، فالغابة الظليلة المتشابكة ، والمر اللصيق ، وهؤلاء الرعاة الجدد بالرائهم المثيرة ، والجوالاهب ، كل ذلك كان يوحي لهذا القطيع الغريب بالاضطراب والفرع .

الا انه عندما بدأ يدخل الباحات العالية والأموار راح يشعر بالطمأنينة فأخذ يذبش الأرض باظلافه الضخمة مثيراً زوابع صغيرة من التراب ماعتمت ان تكاثفت ، فتراكض عمال المستشفى يغللقون النوافذ بسرعة وهم يتصايحون ، فتختفي اصواتهم في هزيم من خوار القطيع .

واستلقى حمد فوق فراشه وهو يستعيد هذا المشهد الغريب ويتساءل : ترى هل عدلت ادارة المعتقل عن استخدام السجناء في اعمال الجر ، وعادت الى طريقها السابقة في استخدام البقر الصيني ؟ ..

- حذا ... ولكن الذي رآه حمد والذي ظل يتأمله بانتباه شديد قبل ان تريحه احدى الممرضات بلطف عن النافذة ، لم يكن صالحاً في اكثريته لاعمال الجر ، فقد كانت الابقار اما عجولاً صغيرة او حيوانات مسنة عجفاء .

وفي اليوم الثاني كانت تقدم المرضى شرائع من اللحم الطازج .

وفي المساء كانت تنصب في زاوية من زوايا الغرفة الواسعة شجرة صنوبر صغيرة راحت الراهبة ذات القبة الشراعية البيضاء لتضي ساعة او اكثر وهي تعلق فيها الشموع والنجوم الملونة والمصابيح الصينية وتبني بيديها شبه مغارة تفر من القطن الناصع وراحت ترتب امامها وفي داخلها تماثيل صغيرة لبقرة وحمار حول مرير لطفل صغير يصلي فوق رأسه مخشوع شيخ بلحية صغيرة وامرأة بثياب قرمزية ضافية ومنديل ابيض بنسدل حتى القدمين .

كان بعض المرضى لا يعون شيئاً من كل ما يحدث .

أما الآخرون فقد كانت أبصارهم معلقة بيدي الراهبة وهي تقلبها برشاقة من غصن الى غصن ومن تمثال الى آخر .

وبعد ان اقلت نظرة رضى على شجرتها الطيفة ، التفتت والابتسامة الوقورة ترسم على شفتيها الورديتين نحو القاعة الواجة الا من انة موجهع ثم احنت رأسها احناة خاشعة وراحت تتكلم بصوت بدا فاهماً رقراقاً كالجدول الجلي الصغير ، ثم راح يعلو ويعلو في مزيج من الخشوع والابتغال :

- اليوم يولد السيد الغادي ، عزاء الفقراء من مغارة متواضعة بيت لحم ، ملوك الجوس يتبعون النجم الفضي حاملين الهدايا الى الطفل الاله ...

ليكن الرب نوراً لثانين وبلساً لجراح المعذنين ، وليكن لكم انتم في هذا اليوم بشائر من محبة ورجاء ، وليكن لكم في احتفال متاعب الارض مكافأة من نعمة السماء ...

لم يستطع حمد أن يفهم شيئاً كثيراً من هذا الخطاب القصير ولكنه احس بأنه صلاة وابتغال، لم يلبث ان اعقبه دخول احد الحراس وهو يحمل عدداً من الهدايا الصغيرة راح يوزعها على الامرأة بشيء من السرعة وعدم الاهتمام .

علبة سكاير ميليا قطع صغيرة من الحلوى ، صورة صغيرة ملونة . . .  
وقد مدت الراهبة الودبعة توزع مع بسمانها كلمات التشجيع والمواظاة ،  
وعندما كانت تغادر الغرفة تودع بالتفالة باسمه كان حمد يتو كاً على عكازه ويقرب  
من صاحبه الصطايفي الذي كان منهمكاً في فتح علبة الميليا .

كان الصطايفي يسند العلبة الى ذراعه المبتورة ويثبتها بذقنه ويتحسسها بأظفاله  
وقد بدا شديد الاهتمام بها شديد الحرص عليها ، فهي منحة قد لا تجود بها اوبئلهما  
الا عباد البعده المقة .

كان قد تناول سيجارة فأشعلها له حمد وهو يسأل عن معنى خطاب  
الراهبة .

كان الصطايفي يتقن الفرنسية ، وقد عاش فترة عاملاً في مناجم الشمال  
بفرنسا فلم يجد صعوبة في ان يشرح لحمد شيئاً عن الميلاد وعن اعياد الميلاد وان  
يوضح بعض المعاني التي قصدت اليها الراهبة في صلاتها الحاشعة ثم تتم وهو يتلفت  
غاضباً في حذر وخوف :

- خطاب جميل ، وصلاة صادقة انها تستحق التقدير ولكن... ولكن..  
آه لو استطاعت ان تقول لابناء جندها بعض ما قاله السيد المسيح للعشاريين  
والفريسيين ..



## الفصل العاشر

ما كاد حمد يتأثر للشفاء حتى أعيد من جديد إلى السجن ليفسح مجالاً في المستشفى لمريض جديد بالملايا أو محطم تحت جذع ، أو ملدوغ ، أو محتضر في أعقاب بعض الأمراض الاستوائية الكثيرة الغريبة .

كان السجن الجديد شبيهاً بالسجن القديم ، جدران مميكة و كوى ضيقة وسقف من حديد تعلوه صفائح من زنك حتى خيل إليه أنه هو نفسه لولا أن بابه كان يواجه مشرق الشمس ولولا أن الأمتة هنا تختلف عنها في المهبج السابق ولولا أن الوجوه الجديدة هي خليط من وجوه سبق له أن تعرف إليها وأخرى لم يتأكد من معرفتها أو الالتقاء بها .

خطا حمد خطواته العرجاء من باب المهبج الطويل بين صفين من الاغطية البيضاء المعلقة على ارتفاع قليل وقد شدت الى الجدران بمحلاقات من حديد وحبال قصيرة تكومت تحتها صناديق قديمة وحديثة صغيرة مغلقة وأحذية من خشب ، وقد استلقى فوق تلك الاغطية عدد من الرجال الذين راح بعضهم يتطلع الى القادم الجديد ، في حين لم يعره الباقيون أدنى اهتمام وقد كانوا منهمكين في لعبسة اللوتو التي سبق لحمد أن شاهدها في سجون فرنسا .

- أهلا حمد . . . أهلا . . .

وقفز من بين الرجال المتربعين على الارض الحشية ، شاب طويل عريض  
المنكبين ، واسع العينين ، وقبل أن يسمع لحد بأن يلوح وجهه الذي طفح  
بالسرور العارم المفاجيء المزوج بشيء من الأمل العميق ، كان يطوقه من عنقه  
بمساعدة السمرائين المفتولين ، ويغمر خديه وشاربيه بالقبلات والدموع . . .  
- يونس . . .

وحمله يونس بين ذراعيه والقاه برفق فوق أحد الاغطية البيضاء وراح كل  
منها يمسح بأحدى يديه دموعه المتساقطة في صمت ، وقد شبك أيد الثانية بيده  
الرفيق الصديق القديم .

كان حمد يتوق الى أن يلتقي بأبن بلدته يونس أنيس جبروع الذي كان يعرف  
أنه هنا في سجون الغويان الواسعة المتعددة ، ويتوق الى التعرف بمحبين العاقل  
من قرية الجدل المجاورة ومزيد عن الدين من قرية السجى المطلة على المزرعة والسويداء  
والذين سبقاه الى هذه المنايا الرهيبة .

ها هو وجهها لوجه أمام يونس الذي انحنى فوق صدره باسماء وهو ينشج ،  
ثم استلقى بدوره على مريو الحام المجاور ولم يقطع حديثها الخافت الطويل غير  
طنين الجرس العنيف المتواصل مع خيوط الفجر الاولى .

أعفى حمد مؤقتاً من الأشتغال الشاقة في الاحراش وكلف بمهمة فتح  
الأبواب في مهاجع السجون .

أصبح لقبه الجديد المؤقت « بورت كلاي » أي حامل المفاتيح ، وصار  
عليه أن يستيقظ مع الجرس أو قبل الجرس بفتح المجمع ومخرج المساجين تحت  
اشراف الحراس ويتأكد من أن الأمرة والصناديق والخزائن مرتبة ومجمل  
الماء الى المهاجع بئلا البراميل الصغيرة ثم يغلق الأبواب ويتمدد في ممره اذا لم  
يكلف بهام أخرى في انتظار المساء .

عرفته مهمته الجديدة بعدد آخر من المعتقلين من بلاد الشرق ومن  
أقربيا ، أنه لم يعد يذكر منهم الا أسماء قليلة ، وأن كان يذكرهم جميعاً بكثير  
من التفاصيل و كثير من الحنان والمودة والاشفاق ، وهو لا يزال يذكر نهاية  
بعضهم بقصة والم :

- شكيب محمد عبد الصمد من عماطور لبنان متهم بقتل ضابط فرنسي في  
باحة سراي البوج . . . نودي عليه من المجمع مع قرع الجرس العنيف في  
الفجر الباكر وشاهده رفاقه يسوقه الحارس الى خارج المعتقل ، ولم يعد حتى اليوم .  
أين هو ؟ ما هو مصيره ؟ لا أحد يعلم سوى الحارس الذي ساقه وربما  
علت ادارة المعتقلات التي سجلت الى جانب اسمه ورقه دون أي تفصيل -  
كلمة : مفقود .

لم يكن تعبير : مفقود ، غريباً عن سجلات منافي الغويان ، فقد لا يندر  
أن يفر بعض السجناء املاً في الحصول على الحرية بأي ثمن ، ثم يعود بعضهم وقد  
أرهقه الجوع والمرض واليأس ، ويختفي البعض الآخر في أحضان الموت وأحضان  
الغابات إلى حين وقد لا يندر أيضاً أن يسوق الحارس المعربد الحاقـد المنتقم  
لسبب أو لآخر خصمه السجين ويفرغ في رأسه رصاصة غادرة ثم يدعي أنه أقدم  
على ذلك دفاعاً عن النفس بشجعه على هذا الادارة المتساهلة التي كانت تعتمد بدورها  
الى مثل تلك الاجراءات الغادرة .

وها هو يدعى الى المستشفى وهو يرتجف من البرداء ليقف أمام جثة  
مكفنة بغطاء أبيض كان الطبيب ، بنظاراته الذهبية الشديدة الصفاء ، ينقل  
نظره بين الجثة وبين السجين المتكئ على عكازه وهو يرتقص من الألم :

- يونس اخوك ...

- نعم ...

قالها وهو يحس بجفاف مفاجيء حاد في حنجركه ويشعر بأن فاجعة مؤلمة تهدم ما أبقت البرداء من عزمه ، الا انه عاد فتألك نفسه وهو بين مصدق لظنه ومكذب .

— هل له اعداء ، ومن قطنهم ؟

لا ... يونس ابن حلال ... يحب رفاقه ورفاقه يحبونه .  
ولم يستطع أن يتابع الكلام فقد توقفت الالفاظ على حافة شفتيه المرتجفتين الجافتين وانساب الدموع تتغلغل في شاربيه الفاحمين وتندرح حتى العنق .  
وعندما رفع الطبيب الغطاء عن الوجه المسجى ، ظهرت آثار جرح حديث يحرق البارود حافته ، يخترق سطح الجبين ، ويقطع ارنبة الانف ليفتح ثغرة واسعة تغمرها الدماء في أسفل العنق .

— يونس : آخ يا خبي . . .

ولم يعد حمد يعي شيئاً سوى انه عرف فيما بعد انه ظل يهذي عدة أيام في المستشفى ، ويردد أناشيد حزينة عالية النبرات حيناً خافتة أحياناً وقد وقف حوله بعض العمال والحراس وهم يرقبونه بين مشفق وهازئ .  
اما عن مزيد فقد تزامن اليه انه نقل الى العمل في مناجم النهب في معتقل بعيد قاه .

قيل انه هرب الى اميركا وقيل انه فقد ، وعندما جاءت زوجته بعد عشرين عاماً تسأل حمد عن مصير زوجها كان ولداها الشابان ينصتان باهتمام الى بعض الشائعات التي راجت في المعتقل عن اختفاء مزيد .

والى اليوم لا تزال الزوجة الحزينة العجوز والأحفاد والوالدان ينتظرون بأمل دائم التجدد عودة السجين المفقود . . .

الم يقطع الناس الأمل من عودة حمد ؟ وهل صدق الا اقلهم انه قد عاد  
حيا يزق ؟ ...

واما رفاقه من المغاربة فلم يكن مصيرهم مختلف كثيراً عن مصير شكيب  
ويونس ومزيد ، فطالما شهدت شواطئ شمال افريقيا قوافل السجناء الشباب  
مشدودي الابدني ، حليقين تسوقهم الحراب نحو السجون الحربية المتجولة ،  
ومن ثم نحو الجهول ، ولكن ندر ان شاهدتهم يعودون وان عاد الاقل فعاجز  
مشوه أو مهدم عليل ...

واستطاع حمد مع الزمن وبشيء من المكابرة ان ينتصر على المرض وان  
يعيد الى ساقه حركاتها شبه الطبيعية .

لم يستسلم الى اليأس ولم يركع امام تحدي الطبيعة وتحدي المعمرين ،  
وقد كان يحس في ساعات الضيق والاختناق بضوء من رجاء يشع في نفسه ويبعث  
فيها الاطمئنان والثقة بالله وبالقدر خيره وشره .

لم يكن حمد يعرف شيئاً عن الكتب والتعاليم الدينية على اختلافها ،  
لم يدخل كنيسة ولا جامعا ، ولا مدرسة ، ولم يسمع خطبة ، ولم يعلق في ذهنه  
عن المعتقدات الا ما يتردد على السنة الناس من احاديث غامرة .

ومع ان الناس في بلده يحتمون للصلاة ، ومع ان والده كان يذهب في  
الليالي للاجتماع برفاقه من الاجاويد الشيوخ يرددون الادعية والانشيد الدينية  
الا انه لم يحاول ابدا ان يتم بذلك .

كان يكفيه ان يؤمن بالله واحد يأمر بالخير وينهى عن الشر . اما الان  
فقد اضاف الى ايمانه البسيط السابق ايمانا جديداً ، ايمانا بأنه يجب ان لا يستسلم  
الى اليأس ، يجب ان يحيا صابراً وان يعود الى وطنه والى امه .

بهذه الروح قابل حمد الاغراءات الجديدة التي بدأت تغزو .هاجع الاشقياء  
المهرومين فقد اخذ بعض السجناء يتلقون رسائل شخصية من فرنسا ، وعندما  
كانوا يفتحونها كانت انظارهم تسمر على ابتسامة فتاة بشعر قصير او مسترسل ،  
وبوجه مختلف في صفائه ورونقه الا ان النظرات كانت غالباً واحدة : نظرة  
تتحدى في نعومة واغراء .

عروض زواج من فتيات باحمار واطوال والوان وثقافات مختلفة واوضاع  
اجتماعية متقاربة الا ان النغم الموحدة فيما كان الوعد بالسعي لتخفيف مدد الاحكام  
حتى العفو .

كانت الرسالة الاولى الشخصية التي تلقاها حمد قادرة على تشويش ذهنه  
واضطرابه فكانت التجربة بالنسبة اليه جديدة شديدة الاغراء .

الا انه استطاع مع الزمن ان يسلمو ...

وفي التجربة الثانية كان قد اكتسب مناعة ومن ثم لم تعد الرسائل المقبلة  
تثير في نفسه الا شياً من الاشمئزاز .

ولم تطل مهمة حامل المفاتيح بعد ان اصبح قادراً على العمل ، ومن ثم  
بعد ان لاحظت ادارة المعتقل تصميمه على ان لا ينحني امام الاغراءات .  
اعيد الى العمل الرتيب المضني المرهق في الغابات العذراء .

انطلاق مع الفجر ، وعردة عند الظهيرة ، ثم استئناف لاعمال الصباح  
ثم العودة الى المهاجع الجديدة حيث الامرة من قماش ترتفع عن ارض الغرفة  
الحشية ، ويلز بعضها بعضاً حتى تكاد تبدو مريراً واحداً واسعاً .

وهكذا مضت السنوات ممة كالحلة لا يغير من طعمها المرير غير بهجة  
مصطنعة عابرة في عيد الميلاد او رأس السنة ، كانت في الغالب اثاره جديدة

ونحريضاً لذكريات كامنه عن اعياد الوطن الصاخبة الشديدة المرح وعن الأهل والأحبة الذين قد يذكرونه وقلوبهم تعتصر حزناً في موجة افراح الحبي العارمة ، حتى نهار الاحد نهـار الراحة والاستجمام كان نوعاً من انواع الاشغال الشاقة المخففة : غسيل وحراسة غسيل .

والحوادث المفجعة التي كانت تهز السجناء الجدد لم تعد تهزم الان ، فقد تعودوها حتى هانت ولم تعد ترهبهم التهديدات بالترزانات المنفردة ، واغلال الحديد .

حتى الذين جربوا بشاعتها لم يلبثوا ان بددوا رهبتهم وعذابهم في غمرة الاعمال الشاقة الجديدة اليومية .

وحتى الذين أرسلوا الى ( جزيرة الشيطان ) بعد محاكمات عسكرية خاطفة والذين قبض لهم ان يعودوا منها أحياء ولهمسوا الى الموثوقين من الاصدقاء بأساليب التعذيب الرهيبة التي تعرضوا لها هناك حتى هؤلاء لم يمنعهم ذلك من المتول مرات أخرى أمام الهاكم العسكرية نفسها : أليست القويان كلها جزيرة الشيطان ؟ ..

و ذات يوم عندما كان حمد يخلق بنفسه ويده كسرة من مرآة أفزعه ديبب الشيب المبكر في عارضيه . وتجايد الم ترسم عميقة في جبينه الذي حولته الشمس الاستوائية الى قطعة من نحاس داكن ، الا أنه سرعان ما سلا عندما تذكر ان تسعة أعوام من الأشغال الشاقة والمنافي والحرمان قد مرت ، وعندما أبلغ بأنه سيكلف بمهمة حامل المفاتيح نظراً لحسن سلوكه في السجن ولهمته وانضباطه في العمل .

عاش حمد ثلاث سنوات هادئة لولا ضغط الذكريات ومرارة الاغتراب  
والمآسي التي كانت تؤرقه وتدمي قلبه .

لقد كان عمله الجديد نعمة بحسبه كثيرون عليها الا انها كانت في حد  
ذاتها بالنسبة اليه مضنية مزعجة ، فقد عز عليه ان يصبح -جائناً لرفاقه- يفتح لهم  
الأبواب ويفلقها الا انه لا يزال الى اليوم يورر قبوله هذه المهمة طوال ثلاث  
سنوات بسوء حالته الصحية فهو يكاد لا يفارق المستشفى والادوية ، حتى انه اخطر  
الى دخول المستشفى في العاصمة « كايان » لاجراء عمليات في كليته لا يزال الى  
الآن يشكو منها ويضطر بسببها الى التزام فراشه فترة بعد فترة .

ولا يزال حمد يذكر ان مهمة حامل المفاتيح وان كانت في ظاهرها  
مرجحة الا انها كانت تسمح للمل القاتل والحول والكآبة ان تنمو وقد تواصل يوماً  
بعد يوم .

حتى انه وجد نفسه مدفوعاً الى ان يقدم طلباً الى المعتقل يرجو فيها ان  
يسمح له بالانتقال الى العمل في احدى الورشات الثابتة المنتشرة في داخل الغابات  
الهائلة الاتساع ... وفي الغابة أحس حمد بأنه يبدد شيئاً من ساعه و كآبته .

صحيح ان العمل مرهق : تقطيع جذوع ، وجر أخشاب وتوضيها  
وتجميعها في مراكز ( سترالات ) ، حيث تنقل الى الميناء غير ان الحياة هنا  
تختلف في نواحي متعددة عن الحياة في المعتقل .

فالاسوار هنا هي شواطئ البحار أو مجاهل الصعاري الاستوائية والمعتقل  
هو الغابة الشاسعة ذاتها والحراس حراس هنا وهناك الا انهم في الغابة أشبه بمفتشين  
بينهم القاصي الجاف وبينهم من هم أخف قسوة وغلظة .

كانت الورشة التي التحق بها حمد تتألف من عشرة أشخاص يعيشون حيث



يعملون ولا يلتقون بغيرهم من العمال السجناء الا في المركز (السترال) ، كل  
أحد أو في الأعياد القليلة النادرة .

كان كل واحد من الرجال العشرة في الفرقة قد بنى لنفسه كوخاً من  
الحشب يرتفع مترين الى ثلاثة عن الأرض ، سقفه من سعف التنجيل الاستوائي  
وارضه من الحشب وركائزه اشجار الغابة الحية الضخمة ذاتها ، يصل اليه بسلم  
متحرك يرفعه ويخفضه حسب الحاجة ، وفي الداخل مؤونة الاسبوع وبعض  
أدوات المطبخ وبرميل صغير للماء ، وفي بعضها كان يطلق قوس وجعبة سهام  
من بقايا قماش خيمة .

كانت الاكواخ متقاربة متشابهة وان اختلف بعضها خلف الجذوع الضخمة  
والاغصان الخضراء الداكنة الدائمة النمو وبين الألياف المتأرجحة ..

تعاونت الفرقة لبناء مأوى لزميلهم الجديد وفي المساء كان حمد يستلقي  
فوق ارض كوخه الحشبي المعلق في الهواء ويستلم الى التأملات والذكريات  
وحيداً في اعماق الغابة التي كانت تبدو حالكة السواد كأنها قطعة من الليل  
الدامس وان التمتعت من خلال الكوة الصغيرة بعض النجوم الشديدة البريق .

لم يحاول ان يغري جفنيه بالنوم ، لقد كان في حالة يلبذ للانسان فيما ان  
يتأمل : انه في كوخه وحيد . حر في الدخول والخروج ، يستطيع ان يغني  
بلد رثييه اغانيه الحزينة ، اغاني الشكوى والحزن ، يستطيع ان يأكل متى شاء ،  
ويستيقظ متى شاء ويستريح متى شاء ، انه يحس بشيء من الحرية وان كان قد  
افهم ان عليه ان يقدم كل اسبوع كمية معينة من الاخشاب يقطعها ويحملها الى  
عربة من حديد ويدفعها امامه مع واحد من زملائه فوق خط حديدي ضيق  
حتى المركز .

وهو يشعر بشيء من الراحة وان كان قد افهم ان عقوبات التصير

والاهمال اشد قسوة ، ألا يكفي انه استراح من قرع الجرس الذي لم يحد أطوال  
اثنى عشر عاماً ؟ ألا يكفي انه ودع ذلك السرير من القماش الضيق الذي كان  
يكبله كل ليلة فلا يستطيع ان يتقلب ولا ان يتحرك بشيء من الحرية دون ان  
يدفع بيده او ساقه مرير جاره ؟ ..

ألا يكفي انه استراح من البعوض والحفاس وروائح المهجع النتنة ؟ ...  
كان يشعر بان الانسان يستطيع ان يكون في هذه الغابة راضياً ، مستمتعاً ،  
الا ان الاحساس بالظلم والاستعباد ، وحجز الحرية ، والحرمان من المجتمع  
الانساني ، والحنين الدائم للتجدد الى الامل والوطن وطيف الأم الساهرة المنتظرة  
بصبر القديسين عودة الابن المشرّد المعذب ، كل ذلك كان ينغص على حمد كل  
محاولة للاستسلام والرضى .

وعادت الى ذهن حمد الصور الرهيبة الجريئة التي كان يرسمها لثورة يؤججها  
هؤلاء المعذبون ضد جلاذهم في تلك المجهل النائية . الا ان حماسه لتلك الفكرة  
الهائلة لم تلبث ان خمدت ، فالارهاب ، ونجزة المعتقلات والرية كانت هي  
المهيمنة ومن ثم فان مثل ذلك التمرد في مجاهل فائية سيكون نكبة لا تستحق  
التضحية الحاصرة .

وعندما كانت طلائع الفجر تطل من كوة كوخه كان صوته الحزين  
الناغم يردد في سكون الغابة السوداء « موالاً ، لا يزال يردده الى اليوم وكأنه  
يحيا تلك الفترة الرهيبة من شبابه :

دمري غدرني واصبحت انا وحيد

باحيف بامر المضى في السجن

واصبحت انا وحيد

اسألك يا اله العرش الواحد الوحيد

نرجع الى الدبار ويكون عنا اكبر عيد ... اوف ...

## الفضل الحادي عشر

كانت الاعلام توفرف فوق مركز التجمع ، عندما بدأت قوافل السجناه  
تقبل من خلال الممرات الضيقة الظلية ، وعلى وجهها تعابير دهشة وقلق .  
تجمع فوري في المركز ...

هذا هو الأمر الذي تلقاه سجناء الغابة دون اي تفصيل .  
لذا كان من الطبيعي ان يدهشوا او يقلقوا ، انه أمر لم يحدث  
حتى الآن ..

ما الخبر ؟ كان هذا هو السؤال الوحيد الذي بقي بلا جواب بضع  
ساعات مرهقة .

اجتاز حمد الممر الواسع الذي اعتاد أن يسير فيه وهو يدفع عربة الحديد  
المحملة بأخشاب الغابة ، بين الاكدياس الهائلة من الجذوع التي كانت ترتفع عدة  
امتر في الفضاء المكشوف ، مكونة سوراً هائلاً ضخماً حول المركز ، لم يجد  
شيئاً بلغت الانتباه سوى الاعلام المثلثة الألوان التي كانت توفرف متعانقة فوق  
سقوف المهاجع وفي شرفات الابنية الرشيقة المخصصة لضباط وضباط الصف .  
أمر السجناء بالوقوف في رتل ثلاثي في ركن من اركان الباحة ، مكشوفي

الرؤوس ، ليؤدوا التحية للحاكم الجديد مسيو شنال ، وهو الاسم الذي لا يزال  
حمد يذكره .

وعند الظهيرة دوت نداءات الاستعداد، ودبت في المركز حركة مفاجئة  
بين الحراس ، في حين تسمر السجناء في صفوفهم ، بأزيائهم الشديدة الغرابة ،  
يتصب العرق غزيراً فوق جباههم واعناقهم دون أن تتحرك يد ولو خلسة لمسحه  
واندفعت فجأة من خلال أحد الممرات عربة يجرها جوادان ضخمان وهي  
تفرق فوق الارض الجافة المكشوفة .

دوى بوق التحية ، ورفعت قطعة من الحراس بنادقها الى اكتافها استعداداً  
لتقديم السلاح وقد وقف على رأسها ضابط شاهر سيفه الذي راح يلمع تحت أشعة  
الشمس الاستوائية ببريق باهر .

كان لحمد مثل تلك العربة التي اقتنعت الباحة مجلجة مفرقة وكان  
له مثل هذا السيف المشرق ، ومثل تلك الجيول أيام شبابه ... أما الآن ...

وصرعان ما اقتلعه من تفكيره صوت يدوي بالتحية ، وارتفعت الايدي  
الى الجباه المزجة ، وتسمرت فوقها ، في حين تعلقت كل الانظار في اتجاه  
القادم الجديد .

ازيغ ستار مثل ستار هوداج الشرق ، واطلت منه قبعة بيضاء ثم رأس  
نسائي .

ومد أحد الضباط يداً يساعد بها السيدة التي قفزت الى الارض وهي  
تلفض معلق على ثيابها البيضاء الواسعة من غبار وتصلح من شعرها وقبعها .

وقفزت الى جانبها صبية رشيقة ممشوقة وففت تتطلع مشدوعة في هذا  
الجو الغريب ، غرابة الاساطير ، وتبعها رجل طويل كهل ملهى اشيب الشاربين

يرتدي قبة المعمرين البيضاء الواسعة ، وبذلة ناعمة البياض وهو ينفذ ما تبقى من غليونه ، ثم يدهس في جيبه ويتقدم نحو الضابط الصغير الذي راح صوته يدوي بالتحية وهو يلوح بسيفه في حركة دائرية ثم يرفعه قليلاً في الفضاء ليثبتته أمام وجهه الذي بدا عصياً صارم التقاطيع ، في حين كانت الأيدي تدق البنادق دقاً في حركة إيقاعية واحدة .

وقفت السيدة والفنائه في المكان الذي نزلنا فيه وهما تحركان مروحتين واسعتين أمام وجهها ، وقد بدتا مشدوحتين أمام هذه المسرحية الغريبة الحية .

أما الرجل الكهل فقد تقدم يرد التحية ثم يوعز للضابط بأن يأمر بالاستراحة تلكاً للضابط الشاب قليلاً ، وهو يعلم أن الاستراحة تأتي بعد انتهاء جولة التفقد ، إلا أنه صرغان ما راح صوته الناعم يدوي وهو يأمر بالاستراحة بعد أن حدجته الحاكم الجديد بنظرة خاطفة قاسية .

تقدم الحاكم من رتل الجناء ثم تتلوى غليونه فعباه ثم اضعه يده وهو يطلب إلى الضابط المرافق أن يسمح للرجال بسح عرقهم المتصبب وبارتداء قبعاتهم التي كانت معلقة إلى جنوبهم ، ثم راح يصافحهم واحداً واحداً ، ويسألهم عن اسمائهم وبلادهم ...

تلثم المساكين وقد عقدت الدهشة الستهم وتضاربت في رؤوسهم شتى الأفكار والاحتمالات وظلوا رغم التشجيع والابتسام ينظرون باستغراب وريبة وقلق إلى هذه المفاجآت التي لم يألوها .

عربة وخيول ... نساء في أحضان الغلبة ... حاكم يرتدي الزي المدني ثم يتسم ويصافح ...  
ثم يهز غريب ومثير حقاً ...

وعندما مد يده ليصانع حمد كان السجين القديم قد تقالط نفسه واستعاد شيئاً من هدوئه وصفاء ذهنه .

- اسمك .

- حمد عباس ذباب من السويداء سورية ، محكوم بعشرين سنة اشغال شاقة ومثلها نفي ، قضيت منها حتى الان ما يقرب من اربع عشرة سنة ...

- وما هو عملك الان ؟ ...

- اقطع الحشب في احضان الغابة وانقله مع زميل لي الى هذا المركز ...

- هل لك اي رغبة او ملاحظة ...

وجم حمد قليلاً ثم تتم ، ..

- نعم ... ولكن ...

- ولكن ماذا ؟ ... لا تخف ... تكلم ...

ثم ربت على كتفه باسمياً مشجعاً ، فانطلق حمد بشيء من الثقة بالنفس :

- سيدي ... هل تأمر لي بتزجان .

وانبرى واحد من السجناء بأمر الحاكم ليقوم بمهمة الترجمة .

- سعادة الحاكم : بالنسبة لي ، انا لا اطلب شيئاً ، ان عملي في الغابة

متعب مرفق ولكني انحملة بصبر ، اما الشيء الذي لا يحتمل يا سعادة الحاكم فهو

البعوض الذي اوصلنا جميعاً الى المستشفيات ، واوصل بعضنا الى المقابر ...

وهنا تقدمت السيدتان يدفعهما الفضول وتوقفنا خلف الحاكم تصغيان

بكثير من الانتباه والتشجيع ...

وتابع حمد ... لا يسمع لنا بالغسيل ولا بالطعام في الصباح ، وعند

الظهر يكون الغذاء قافئاً .

وانطلقت من خلف الحاكم صرخة ناعمة : - برافو... تابع ...

ونجهم وجه الضابط واحتقن وراح بمجدج السجين الجريء بنظرات الوعيد  
مختلسها من حين إلى حين ، الا ان ذلك لم يخفف شيئاً من حماسة حمد وانطلاقه :

— مساعدة الحاكم ، في المساء عدس مسوس ، والشبه الأهم من كل هذا  
بإسدي اننا نعامل هنا معاملة الثيران ، لا معاملة البشر ..

ثم توقف وقد احس بالنار تغلي في عروقه غيظاً وحقدأ الا انه مرعان  
ما راح يهدى من اعصابه المتوترة وهو يمسح عرقه المتصبب .

— بمساعدة الحاكم .. يكفيننا من العذاب هذا الجو المحرق الحائق  
والحرمان من أهلنا ووطننا ومن البشر ، اذا امرتم بتجسين معاملتنا  
شكركم والا فان شكواوا الى الله .

سمعت السيدة خلصة دمعة راحت تترقق على خدها ، اما الفتاة فقد  
كانت لتتم خلف والدها بصوت مسموع :

— هذا رهيب يا أبي .. رهيب .

ونفض الحاكم غليونه وهو يتمم .

— طيب .. سنرى ..

ثم اعطى الامر للجناء بالتفرق ولتقدم نحو المقصف المعد له وهو يضرب  
اعلى ساقيه بغليونه المطفاً في حركة عصبية ظاهرة .

ما كاد الحاكم يدخل القاعة الفسيحة المزينة بالاعلام والزهور الاستوائية ،  
والمصابيح الصينية حتى تقدم صف ضابط من حمد يستدعيه للمقابلة مدير  
المركز ...

وقف حمد أمام المدير وقفة الاستعداد وهو يحس بأن ثمرأ سيحدث ، لقد  
كانت تصرعجائه فضيحة وسيكون العقاب قاسياً .

الا انه بدا راضياً مطمئناً ، حذجه المدير بنظرة حقد صارخة وهو يتم  
في شبه عريضة : سالو ... ، وأشار الى حارسين من حراسه اشارة خاطفة واذا  
بالسجين يكبل ويساق الى غرفة منفردة جانبية ضيقة شديدة الظلمة عفنة ، كأنها  
مستودع للنفايات ، ثم انحنى أحد الحارسين وراح يثبت الحديد برجلي حمد بقسوة  
ولؤم وهو يلوح بالسوط ويهدد بصوت أجش ولهجة بعيدة عن المهجات الفرنسية  
التي تعود حمد سمعها .

ضاعت الدنيا في عينيه وازدادت ظلمة الزنزانة ظلمة وعفونة وأحس  
بدافع ملح صارخ يدفعه الى ان يضع حداً لحياه ، هذه الحياة التي طالما تمسك بها  
من أجل أمه ووطنه ، أما الآن فلم يعد للحياة قيمة ، كفاه صبراً ،  
كفاه ذلة ...

وتطلع حوله وهو يجتثق غيظاً وحقدأ ومد يديه الى أبريق من تلك ، في  
زاوية من زوايا قفصه الخائقي ، نحسه ، ثم شممه ، وبجرأة لا شعورية خاطفة كان  
يكرع ما فيه كالمجنون .

وفي الباحة كان الحاكم يطلب ان يتفقد ورشات العمل في مراكز التجمع  
الأخرى ، وتقدم للضابط الشاب يعتنق بأن العربة لا تستطيع ان تتغلغل في  
الغابة ، وان العادة قد جرت على ان نهيأ عربة جديدة من عربات العمل للتنقل  
بين مراكز التجمع ، وتقدم الحاكم تذبذبه أصرته من العربة المعدة . كانت تشبه  
في تركيبها الى حد كبير العربة التي اوصلتهم الى هذا المركز ، ستائر  
ملونة وفرش مغطاة بقطع من السجاد المغربي ومساند مزر كشة وعلم صغير  
مثلث الالوان يرفقع فوق مقدمتها ، وقد وقف خلفها سجينان عملاقان وقفه  
الاستعداد العسكرية .



استدارت السيدة بشيء من الاستغراب والدهشة نحو الضابط الشاب  
وهي تسأل مشيرة الى العربية والسجينين :  
- ما هذا ؟ ...

- مدام ، أجاب الضابط ، بشيء من التردد ، الحبل لا تصلح للغلابت ،  
ولهذا فنحن نضطر ان نكلف المساجين بهذا العمل .  
توقفت السيدة فجأة وهي تصرخ وتضرب الأرض بقدمها .  
- لا ... لن أسمع لأي انسان ان يجبرني ، ثم التفت نحو زوجها وهي  
تحاول ان تهدئ من ثورتها .

- اعتقد أنك توافقني يا عزيزي ؟

- نعم يا ماما ، بابا موافق ..

تمت الصبية المشوقة الشقاء بصوت ناعم كأنه يسترحم ...  
اعطي الأمر للسجينين بالانصراف ، وعادت الأميرة كتيبة صامتة كأنها  
تسير في ماتم نحو المقصف .

وفي المقصف انتحى الحاكم وأمرته زاوية يجارلون أن يندوا متاعب  
اليوم ومفاجآته في أقذاح النبيذ التي ظلت طافحة ، لم تمس طوال ساعة  
من الزمن .

وانطلقت الصبية تحاول ان تبدد ذلك السكون الخائق .

- بابا . ما رأيك لو استدعينا ذلك السجين الذي أبدى بعض الملاحظات  
الجريئة وطلبنا منه بعض التفاصيل ربما يساعدنا أكثر على فهم اوضاع المعتقل ...

- معك حق يا بنتي ...

أجاب الكهل وهو يمد يده الى قدح للنبيذ .

- ليكن الآن باعززي ، هاتف الزوجة وعلى صحة نجاحك في عملك  
العظيم الجديد يا سيدي الجنرال ...

وتناولت كأسها ورفعتها الى شفتيها في ابتسامة ساحرة وأشار الحاكم الى  
الضابط المرافق ، وأفهمه انه يرغب في أن يقابله السجين رقم ..  
وأخرج من مفكرته يقرأ فيها الرقم المطلوب .

حيا الضابط الشاب ، وانطلق بشيء من السرعة نحو ادارة المركز ...  
قرع الباب فاستقبله المدير ، وهو لا يزال بذرع الغرفة في حقد ظاهر .  
- سيدي الكابتن : سيادة الحاكم يطلب ان يقابله السجين رقم ...  
- انه هنا ... خذ .

وأشار نحو الغرفة الضيقة المغلقة بكثير من الغيظ والاشمئزاز وعاد  
بذرع الغرفة وهو يدمدم ويتوعد ...  
فتح الملازم الباب وصرخ في السجين المتكوم في الغرفة الضيقة المظلمة  
العفنة ...

- ذباب ... أخرج ...  
لم يتحرك ، لم يحتلج ... لعله فائم  
ورفع صوته وهو يزغى ...  
- ذباب - اخرج ...  
ظل السجين مكوماً على نفسه دون أن يحتلج ...  
- كابتن .. إليّ ..  
امرع الكابتن ملهوفاً ومسدسه في يده .  
- يظهر انه ميت يا كابتن ..

تراكض الحراس وسحبوا الجثة الى الممر ، وحملوها مسرعين الى المستوصف  
القريب ، في جلبة وضوضاء ..

وانحنى الطبيب بفحصه بشيء من الارتباك والقلق ، ثم تمتم ..  
- انه لم ينته تماماً .. قد يعيش ..

عاد للضابط الشاب يرتجف من هول المفاجأة ، انها قمة الفضائح ..  
.. سيدي الجنرال . الرجل في المستوصف .. في حالة خطرة ..

لم يتحرك الحاكم وان بدت على وجهه امارات الفلق والاضيق ، في حين  
اجهشت السيدة في البكاء ، اما الصبية فقد استأذنت الوالدين لعبادة السجين  
المختصر ...

وقفت الفتاة شاحبة مضطربة فوق رأس الشاب المسجى وقد غطى شارباه  
قسماً من وجهه الشاحب وراح صدره يرتفع وينخفض في بطء مخيف .  
- دكتور .. ماذا حدث ؟

- حاول الانتحار بمادة الغريزيل ، يمكن انقاذه اذا كان له حظ ..

وطلبت الفتاة الاذن من الطبيب في أن تسهر الى جانب السجين ، في  
حين كان الوالد الحاكم يشرف بنفسه على التحقيق .

لم يفارق الطبيب السرير لحظة واحدة وقد احس بان وراء هذا الانتحار  
دافعاً انسانياً عميقاً ، في حين كانت الفتاة الشاحبة ، تضع يدها فترة بعد فترة  
فوق معصم السجين تتأكد من نبضه ، وهي لا تتطق بكلمة واحدة ولا تتحرك ،  
وان هي راحت تحت الطبيب من حين الى حين على ان يعمل شيئاً لانقاذ الرجل ..

وعندما فتح حمد عينيه في شبه غيبوبة ، لمح عينين زرقاوين بلون السماء  
تنظران اليه بحنان في اطار من الشعر الذهبي المتأوج ..

وعاد من جديد بغمض عينيه وبسئلم الى النوم كأنه يشد على حلمه  
الجميل كي لا يهرب من بين جفنيه المتعبين .

ومن جديد فتح عينيه وتم ..

- أين أنا ؟ ..

وصرخت الفتاة بصوتها الناعم الدافئ

- شد حيلك ..

وفي المساء كانت عربة الحاكم تنقله الى المستشفى من جديد .

وفي السويداء كانت الأم تتلقى بعد بضعة اشهر رسالة من الغويان لم تعد  
تدري كيف اختفت من الصندوق الضخم المطعم الذي كانت تحرص على ان يضم  
اثنين ذكرياتهم ، ولا تزال تتحسر عليها حتى اليوم ، وان هي ظلت تذكرها  
بالحرف الواحد وقد كانت تطلب من احد اولاد الجيران ان يقرأها لها حيناً بعد  
حين طوال سبع سنوات ، في انتظار رسالة ثانية لم تصل ..

كان حمد في رساله يسأل عنها باهتمام وقلق، ويسأل عن اخيه الذي عرف  
في رسالة قديمة سابقة تلقاها ان اسمه سلمان وانه الان في الخامسة عشرة من عمره  
تقريباً ، ويعجب لماذا لا يكتب اليه ، ان الفتى في هذه السن يعتبر في الجبل رجلاً  
يحس بالمسؤولية ويتحملها ، ماذا حدث له ؟ لو كان حياً لما مجل عليه في الكتابة ،  
يجب أن يكتب اليه . يجب ..

ويسأل كذلك عن اخبار الاهل والجيران ، عن اخواته الثلاث وما  
هي احوالهن ..

أما اخباره هو فقد كانت طويلة فيها المشجع وفيها الحزن المؤلم ..  
تعرف بحسين العاقل من المجدل وهو يكلف أمه بان تخبر اهله بأنه بخير  
وبصحة جيدة .

صار له حادث دخل على أثره المستشفى ولقي من ابنة الحاكم كل اهتمام وتشجيع ، واستفسرت منه عن أسباب نفيه الى الغويان واخبار المعتقلات والغابات بالتفصيل ، وعندما عرفت وثأكدت أنه محكوم سيامي لمت أنها لا تمنع في أن تعيش معه في تلك البلاد أو في فرنسا ، إلا أنه اعتذر بكل بساطة بأنه مريض ولا يصلح للحياة الزوجية .

ومع ذلك فانه سيظل يذكر اهتمامها به وسهرها عليه بكل امتنان، ولا تزال أم حمود تذكر أن حمد كان شديد الاعتزاز في رسالته بأنه خاطب الحاكم بشجاعة من أجل تخمين حالة المعتقلات وان الحاكم استجاب الى مطالب ولدها ، وزع الناموسيات على جميع السجناء ، وأمر لهم بطعام الصباح ، وحسن الأكل تحميئاً ملموساً . وأهم من هذا كله انه رفع عن المساجين كل الاعمال البشعة التي كانوا يرغمون على القيام بها ، لا جر خشب ولا جر عربة الحكام ، وانما اعمال معقولة مثل الاعمال التي يمكن أن يقوم بها أي انسان يشتغل في مصلحة حكومية .

وعندما خرج من المستشفى استدعاه الحاكم وأكد له انه طالب من رؤسائه في باريس صلاحية لمنح عفو عام عن المساجين القدامى وتخفيض مدد المساجين الجدد. ولا تزال ام حمود تذكر ايضاً ان ولدها كان شديد الثقة بالله في أن العفو سيصدر وان العودة الى الوطن بحول الله قريبة ..

وتضيف أم حمود أنها أرسلت اليه رسالتين واحدة باسمها والثانية باسم سلمان إلا أن حمد أكد لها عندما عاد بأنه لم يتلق أية رسالة طوال سبع سنوات فقد وقعت الحرب العالمية الثانية خلال تلك المدة وانقطعت أخباره انقطاعاً تاماً حتى كادت أمه أن تصدق للشائعات القوية التي راجت عن موته . ولم ييسق في السودان من يعتقد بعودة حمد الا هي . .

انها ظلت تعتقد ببقاء ولدها وان احتجبت أخباره طوال سبع سنوات كاملة . إلا أنها ظلت خلال تلك المدة لا تفنت عن زيارة الأولياء وعن الدعاء المضطرم ايماناً وثقة ، وان كانت عيناها قد عشتا من البكاء وجفناها تقرحاً من الهم والسهر واللوعة ..

وعندما وقفت ذات يوم بحجرة وذلة في باب الحاكم بالسويداء تسأل عن مصير ولدها ، كان الجنرال يجيب بشيء من الاستخفاف وبشيء من الشفقة :

— الله وحده يعلم !

## الفصل الثاني عشر

كان قد مضى على خمسة عشر عاماً في الاشغال الشاقة المختلفة في الغابات والمعتقلات المسورة عندما ابلغ مع عدد من رفاقه بأنه قد اعفي من السنوات الخمس الباقية من مدة حكمه . وانه يستطيع ان يقضي مدة منفاه في الجزيرة .

لم يكن الخبر بالنسبة اليه مثيراً أو مبشراً ، فالحياة في الجزيرة لا تختلف كثيراً عن المعتقل ، انها على ما ترامى اليه ، وربما تأكد منه ، معتقل أوسع ، وربما كانت حياة السجون على شفاها وارهاقها اكثر هدوءاً واطمئناناً وأضمن سلامة .

ومن ثم فانه ان استطاع ان يقضي هذه المدة في المعتقل قادراً على الكفاح من أجل البقاء فهل يجد في العشرين عاماً القادمة القدرة على الحياة وقد بدأ الشيب يدب في عارضيه وبدأت التجاعيد ترسم على جبينه المكدود النحامي ، غائرة متشابكة ، وهو لا يخرج من المستشفى إلا ليعود اليه جريحاً أو محتضراً او مرتجفاً من البؤداء او الى غرفة العمليات ...

لم يبد حزينا ولا فرحاً عندما ابلغ اعفائه من السنوات الخمس الباقية من

الاشغال الشاقة . وانما بدا كثيراً قلقاً وهو يواجه مرحلة العشرين سنة القادمة من  
النفي في الجزيرة الربية .

ومع ذلك فقد اخذ يشعر شيئاً فشيئاً بأنه سيكون احسن حالاً : انه  
على ابواب حرية طالما اشتاقها وان كانت حرية منغصة .

كانت اولى مفاجآت هذه الحرية ان اعطي بذلة مدنية ، واستعيدت  
منه بذلة المهرج ذات الالوان الشبهة بجلد الحمار الوحشي ، وتخلص من ذلك الحافر  
الحشبي السمج .

آه : ما اجملها هذه البزة التي احس معها حمد بأنه يستعيد انسانته ، انها  
قديمة شبه بالية مجمدة تلمع فيها بقع الزيت المختلفة ، الا انها بذلة انسان ...  
انسان من البشر ...

قبل رفاقه وشد على ايديهم بجرارة اودعها كل ما في قلبه للطبيب من  
تقنيات وتشجيع .

ثم القى نظرة وداع طويلة على تلك الشكنات الواسعة الضخمة والاسوار  
العالية ذات الانياب الزجاجية الربية ، تلك الاسوار التي بدأ يشعر الان نحوها  
شعور مودة لاشعور حقد وثأر .

ألم يودع فيها جزءاً من شبابه ؟ ألم تكن مسرحاً لذكريات وصداقات  
ومصير مشترك وتعاون ؟

ألم تكن شاهداً على للصراع النفسي الهائل الذي خاضه بين بوارق الأمل  
والرجاء ودبابجي اليأس القاتل ؟ بين فترات التردد والضعف البشري وبين الصمود  
والتحدي ... واخيراً . .

لماذا يحقد ؟ ألم يكن هو من القلائل الذين انتصروا عليهم ولو بالصبر



والمسكوبة والذين راحوا ينظرون إليها نظرة الظافر المشفق وهي تغيب في احضان الغابة الظليلة المتشابكة الواسعة من خلال المر الضيق الذي بدا مظلماً رغم أشعة الشمس المحرقة التي كانت آنذاك تنسكب على الأرض كاللعدن المصهور .

كان يسير وحيداً في اتجاه الميناء ، يدس يده في جيب رداؤه المهلهل بين الحين والحين يتحسس الوريقات الملونة التي تثبت هويته والعفو الصادر عن بقية مدته في الاشغال الشاقة . وتعليقات الامن المتعلقة بسلوكه المقبل في المنفى ومن ثم تلك الرسائل التسع الوحيدة التي تسلمها من أمه طوال خمسة عشر عاماً .

وهل يذكر حمد انه تسلم غيرها من الوطن .. ؟

وهنا توقف يشعل السيكارة الوحيدة الاخيرة ، ثم انطلق وهو يتمتم ...

لماذا لم يكتب الي احد ؟ لي اصدقائه في الوطن ! ..

لي أهل ومعارف : لماذا نسوك يا حمد ، ربما ظنوا انك لن تعود وانك

لن تعانجهم ؟

ولكن ... ربما كانت المراقبة العسكرية تمنع وصول رسائلهم اليك .. لا اظن .. لان بريد المعتقل الاسبوعي لم يكن يجيلاً على الرفاق الآخرين آه .. كم كان الواحد منهم يبدو سعيداً عندما كان يقرأ أو يطلب من رفيق له ان يقرأ له رسالة من صديق قديم أو قريب مشتاق : ... اما هو فقد كان يشعر بخيبة أمل يشعر بغصة ... باحترق ... عندما كان ينظر اليهم في المجمع الواسع وهم يتلون الرسائل تلاوة الاناشيد الدينية ...

لماذا ؟ ... لماذا لم يذكر احد سواها ؟ ...

هل كان مملك مشيناً أو مخلاً بعبادات قومك يا حمد حتى تعامل بمنل  
هذا الجفاء والاممال ؟! هل جبنوا بعدك وذلوا ؟ لا اظن !.. لا أظن  
فهو لا يزال يذكر اغنية رفيقه بن عمار الذي طالما شكاه مثله نسيان الأهل  
والاصحاب ...

تومدة ماجاني جواب  
دمعي على خدي مكتاب  
اولاد ممي اثنين نسيوني  
ياقلال الدين ! لو كان انتومر بوطين  
نيع عليكم مانكسب ... آه ...  
تومدة ما جاني جواب ...

وقفز من فوق رأسه سعدان صغير راح بقلقه ويرقص بمرح في أعالي  
الأغصان وهو يرمي الشريد الغريب بنظرات دعابة وسخرية .  
انتفض حمد وود لو كان مسلحاً لأدب به قروء الغابة كلها ... إلا أنه ما  
عم أن ضحك ضحكة خافتة من تلك الفكرة السخيفة التي راودته ... ومن ثم  
لم يتالك أن رفع صوته بالغناء غناء حزينا رقيقا ضائعا في أحماق الغابة الراكدة  
السوداء .

هاهي المدينة ، القرية الكبيرة ، تطل من وراء فسحة من الأرض  
مكشوفة ترتفع على جنباتها الأسوار الهائلة من الأشجار الاستوائية الضخمة  
المتشابكة ، وها هو البحر اللامتناهي الشديد الصفاء والركود كأنه بحر من زيت ،  
تراقص فوقه بدلال ورشاقة أشعة الشمس المتوهجة ويسطع بريقها فوق أسطحة  
الزنك المنتشرة في الأحياء الأوروبية من المدينة ، القرية التي زارها حمد مرة بعد

مرة في أعمال السخرة أو فوق محفة الى المستشفى، وهو يعرف لماذا تدعى «كايان»  
أي قايين قاتل أخيه هابيل ..

خيل اليه انه يقبل على معتقل جديد اشد شراسة وغلظة من المعتقل الذي  
ودعه منذ ساعات ، ولكن لا .. انه سيكون هنا حراً وسيعرف كيف يتصر  
ولو بالصبر والمكابرة .. يجب ان يجيأ ..  
يجب ان يعود الى امه ووطنه ..

دخل ازقة المدينة الترابية ، لم يلتفت اليه احد ، لم يتم به احد .. لم  
يسلم عليه احد ، هو لا يعرف احداً ولا احد يعرفه من الناس القلائل الذين كانوا  
يمرون به بعضهم بنشاب اوروية بين مزربة ومقبولة وبعضهم عراة .. إلا من  
قطعة قماش، قطعة قماش واحدة مجسم الكف يربطونها بحيط من الياف الأشجار  
حول حقوهم ، وبعضهم الآخر عراة عراة تماماً كما ولدتهم امهاتهم حتى النساء .

سأل عن نقطة البوليس ، فارشد اليها ، انها الى جانب الميناء الذي كان  
خالياً من المارة آنذاك حتى من العمال .. شيء مستغرب ، كان الميناء دائماً وابدأ  
في حركة مذهلة مدهشة، طوافات تحمل الاخشاب والبواميل والبضائع والحيوانات  
والمساجين والمسافرين ذاهبة آيية اما الآن فر كود .. ركود غير طبيعي ..  
ماذا حدث؟! .

— انت من سوريا .. من الشرق .. انت محكوم الآن بالبقاء في هذه  
الجزيرة عشرين سنة ، عقوبة الموت تنتظرك اذا حاولت ان تغادرها بلا اذن منا  
انتبه .. والآن أدلك على واحد من بلدك اسمه محفوظ ، صاحب مطعم في  
الساحة الرئيسية بالبلدة يمكن ان يرشدك الى محل تعيش منه ..

كن عاقلاً .. في رأيي ان عشرين سنة في المنفى خير من الموت ربما  
بالرصاص .. رصاصة واحدة لا تكلفنا شيئاً .. مفهوم .. خذ ..

وانحنى خابط البوليس القصير النخين بفتح درجاً ويقدم اليه حفة  
من الفرنكات ..

- ضع بصمتك هنا، على هذه الورقة .. انتبه هذا المبلغ لا يكفيك اكثر  
من اسبوع .. المبدأ هنا من لا يعمل يجب ان يوت جوعاً .. مفهوم ..

ظل حمد واقفاً وقفة الاستعداد .. لم يتعود ان يمد يده .. انه لن يبدأ  
بالتحول بعد خمسة عشر عاماً من الاشغال الشاقة .

كادت الدفعة تفر من جفنه ، ولكنه استطاع ان يجلسها وهو بعض على  
شفته من القهر ، كاد ان يستدير ويخرج من المكتب بلا وعي ، وتحرك الضابط  
بهدهء من خلف مكتبه ثم تقدم يربت يرفق على كتف حمد :

- اسمع يا رجل .. هذه ليست صدقة .. انها عمل قانوني يجب ان لا تتردد  
اذا شئت ان تحيا وان تعود يوماً ما الى بلدك ..  
تشجع قل لمفوظ اني اسلم عليه انه رجل طيب ..

سار كئيباً غريباً لا يثير انتباهه أي شيء ، واي شيء يثير الانتباه في  
قرية خامدة عند الغروب بلا سيارات ولا دراجات ولا أي جنس من اجناس  
الدواب ، لا خيل ولا حمير ، ولا ماشية ، انها بلاد زنوج فقراء مشردين عراة  
يتقاسمون ثمار الطبيعة وبعض بقولها مع جماعات من السعادين التي تبدو اكثر  
سعادة ومرحاً ١٢ .

وعندما اقبل على الساحة العامة كانت الأزقة الضيقة مظلمة خالية فحجبها  
بعض الكلاب الشاردة وبعض دوريات الحراسة ، وكان بعض الناس القلائل  
بازيائهم الاوربية او بعض الزنوج النصف عراة يغادرونها ويتغلغلون في الأزقة  
الفرعية التي راحت تتحول الى قطع من الليل الدامس الساكن .

ولم يصعب على حمد ان يتدي الى مطعم محفوظ فقد كان في اقصى الباحة  
باب زجاجي وحيد يشع منه ضوء قنديل خافت وثلوح في داخله بعض المقاعد  
المنخفضة وبعض الصحن والاكواب والقناني ..

قرع الباب بيد مترددة ، وانتظر ، لم يسمع اي جواب ، إلا انه احس  
بوقع اقدام تنزل درجات - لم خشبي ، ولاح خيال انسان ما لبث ان تقدم  
بطول برأسه الاشيب وفي حذر اشد فتح الباب بيده اليسرى ويده اليمنى  
خلف ظهره .

إلا انه لم يلبث ان ادار المفتاح وهو يدس شيئاً اسود في جيب قميصه  
الأبيض الواسع ..  
- ادخل .. قالها الرجل الأشيب بالفرنسية .

دخل حمد بتردد واضح وهو يلتفت ، يلتقي وجلس وحيداً حزناً في قاعة  
منخفضة واسعة وقد تناثرت حوله الموائد الصغيرة المنخفضة والمقاعد الخشبية  
السمجة وان بدت نظيفة .

- اسمي حمد عباس دياب من السويداء - سورية .  
- اهلا قالها بلغة عربية وهو يتنم مشجعاً .  
الامم ليس غريباً عني ، سأذكرك المناسبة ، اهلاً .. كأس نبيذ ..  
- لا شكراً .. فنجان قهوة ورغيف ..

نفض الرجل باسماء ، إلا ان حمد لم يجد في تلك الابتسامة اي تعبير واضح :  
- اشفاق ... تودد ... سخريه ... استهجان - لا يدري الا انه  
يذكر ان الرجل تسلق السلم الخشبي وغاب فيه ربع ساعة ثم عاد يحمل فنجان  
القهوة وبعض الطعام ورغيفين ...  
- راس بصل من فضلك ...

- بصل ... ( وكانت الابتسامة هذه المرة ، ابتسامة اشفاق واضحة ) ..

آسف ...

لا شك انك لم تذق البصل منذ عهد بعيد ...

سنجرب ان نحصل عليه معاً ان استطعنا ... اسمع يا حمد ... تذكرت  
... تذكرت جيداً قصتك مع الحاكم ... اسمع لي ان اقبل وجنتيك ، آه كل  
الناس هنا يحسون انك حاوات ان تضحي بنفسك من اجلهم ، كل الاخبار تصلي  
الى هنا ، كلهم اصحابي لا يكتفون عني شيئاً ..

مدام !.. صرخ بصوته الجمهوري الحلبي ... عندنا ضيف !..

ثم التفت الى ضيفه و اضاف بصوت هادئ .

- الداعي حسين محفوظ من رجال ثورة ابراهيم هنانو - سأذكر لك

التفاصيل في المستقبل ، واطن ان قصتك هي قصتي .. سنرى ...

وفي هذه الاثناء كانت سيدة قصيرة نحيفة سمراء ترتدي ثيابا خافية  
ومحتشمة وغطاء للرأس تهبط السلم الخشبي وترحب من بعيد ، وعرف حمد فيما  
بعد انها فتاة مسلمة من بعض جزر الشرق الاقصى ، تعرف بها حسين في المقاطعة  
الهولندية من الغويان وهما الان بديران معاً هذا المطعم بانتظار الفرج ...

دعا حسين ضيفه للمبيت عنده ، في غرفة علوية منفردة اعتادت ان تستقبل  
امثال هؤلاء المهائمين الغرباء ، الا ان حسين كان حذرا في استضافتهم ، كان  
يعرفهم تقريبا واحداً واحداً قبل ان يخرجوا من المعتقلات الى المنافي ، وكان  
صديقه ضابط البوليس يحذره من بعضهم ، ومع ذلك فقد كان مسدسه في جيب  
قميصه الواح ليلانها .

- اسمع يا حمد ... ربما لاحظت ان ابتسامتي كانت غير طبيعية عندما طلبت مني فنجان قهوة ورغيفاً ...

كان طلبك مفاجأة لي ... انتم في الغابات لاتعلمون ان العالم في حرب .. فقدت اشياء كثيرة واختفت من الاسواق ، حتى الحبز ان وجدته اليوم فلن نجده غداً . . . اعتقد ان العفو الذي شملك مع كثيرين غيرك كان بسبب الحرب ايضاً .

تصدير الحشب لم يعد ممكناً فالبحار مليئة بالغواصات والالغام وبعض القطعات الالمانية البحرية وصلت الى شواطئ اميركا ، صار السجين يكلف اكثر مما يستطيع ان يقدم من انتاج .

ثم توقف يشعل سيكارة لزميله وله وراح يستطرد ...

- انت الان وامثالك امام تجربة قاسية متضطرون ومنضطر جميعاً الى ان نتعود حياة الاهالي البدائيين المتوحشين ... ولعلك بحاجة الى الراحة اكثر من نصائحي .. تصبح على خير ...

قال ذلك ثم صافح بجمرة وانسحب الى الغرفة المجاورة وهو يغلق خلفه الباب بهدوء ....

وفي الصباح كان حين يقدم الى ضيفه قدحاً من الشاي راح يجمرعه وهو لا يزال يتمطى في فراشه .

- اسمع يا حمد ... انا اعرف عنك من زملائك اشياء كثيرة وأعرف انك مصمم على العودة الى امك ووطنك ... انتبه ... من الان يجب ان نجمع اجرة الطريق . كل يوم يجب ان توفر من فرنكين الى خمسة فرنكات ، يجب ان توفر منها كلف ، والا فانك لن تخرج من هذه البلاد ...

الامير كان يبنون في داخل الغابات مطارا هائلا . . . ساعمل جهدي  
لتأمين حمل لك هناك .

هو حمد رأسه علامة الشكر ، وانطلق يلقي نظرة على البشر ، على الحياة  
على الدنيا ، ربنا يحصل على جواب من صديقه الجديد .

عمل حمد في المطار ما يقرب من سنة ، كان سعيداً الى حد ما ، الا ان  
السرعة في العمل كانت هي الشعار ولا سيما في حالات الحرب . . .

وهذه الالات الهائلة التي لم يشاهد حمد مثلها ولم يسمع بها ، بعضها ينطح  
الاشجار منها كانت صلبة ضخمة مرتين او ثلاث مرات فاذا هي تهوى في اقل من  
ربع ساعة ، وبعضها يجرها وهو يهدر كما يجير الولد القصبه ، وبعضها يدك التلال  
الصغيرة ويخلع الصخر ويسوي التراب ويمهده . . . ورويداً رويداً راحت الشركة  
تستغني عن عمالها وتسلم المطار الى القوات العسكرية الاميريكية .

عاد الى المطعم يودع ما توفر لديه من مال لدى صديقه الجديد وهو فرح  
مستبشر .

- تعمل معي في المطعم . . .

- اجرب

الا ان التجربة كانت فاشلة فلا هو يحسن الطبخ ولا هو يجيد خدمة  
الزبائن ، ولا هو يقبل ان يكون عالة على المطعم المتواضع . . .

- سأعود الى الغابات . . .

وفي الغابة عاد الى الفأس والحبل والكوخ الخشي ، عاد حراً يعمل  
لحساب نفسه إلا أنها ستكون حرية قاسية مريرة .

انه تعود العمل في الغابة وآلف الفأس والشجرة .



الا ان المشكلة الرئيسية التي واجهته في عمله الجديد كانت مشكلة الاكل ...

في الماضي كان يحصل على معلبات وقطع جبن وبعض الحبز والعدس والفاصوليا اما الان فان اكثر هذه الاشياء قد فقدت من المدينة وان وجد فبأسعار خيالية لا تسمح لمحمد بان يفكر في الحصول عليها .

كان لا بد إذن من العودة الى المحمية ، الى ماكرولات العبيد التي لا يزال يذكر منها بعض الأنواع ، الرز المسلووق بالزيت والكواك والتايوف والنيام أما النوع الرابع فانه لا يجب ان يذكر اسمه انه يشبه كلمة سفينة .  
وحدد ككل الجبل القديم في الجبل يتعفف عن ذكر الكلمات النائية ، اما الكواك فهو أشهرها ، انه مثل قصب الذرة ، يقول حمد ، ورقه مستدير مثل ورق الثوت ، وله عقد مثل عقد القصب كل عقدة تثبت قصبه ، جذوره تحت الأرض مثل اللفت ، ويسمى الأهالي ( داشين ) نقشر ، تبرش ، نعصر ، ترمى في حلة واسعة وتسلق ثم تطحن ويصير لونها بلون البرغل .

هذا هو الطعام اليومي ، لا شيء سوى الكواك ، الذي يسلق في طاسات وصحون أو لحم غزال أو أرنب .

أما الصيد الرئيسي فهو الفرد الأحمر ، لا يزال حمد الى الآن يذكره بتقزز ... أخس : لحم قروود .

ولا يزال الى اليوم يضعك عندما يتذكر محاولاته في تهيشه طعامه بنفسه .  
انه يعترف بأنه لم يستطع أن ينجح في حين استطاع صديقه حسين أن يكون من هذه المهنة رصيذاً لانقاً منقذاً

— اسمعوا يا اخوان ... واضحكوا ... جربت أطبخ الكواك  
نفس مثل البرغل وأكثر ... نقلت الطبخة الى وعاء أكبر نشف الماء ، زدت

الماء نفش من جديد .... قلت ... باولد اذا قضيت نهارك في المطبخ من ابن  
تعيش ؟ .. اترك ...

ولكن الضرورة الزمتني ان اشتغل بالنهار في الأحراش وفي الليل في  
الطناجر والصحون ...

وفي بعض الأحيان كنت اصطاد بالقوس والنشاب وبواسطة كلاب الصيد ،  
السلاح ممنوع في تلك البلاد وخصوصاً أيام الحرب .  
ربك كريم ... وفرجه قريب ...

الا ان الشيء الذي لا يزال الى اليوم يؤرق حمد ويرعبه ، هو ذكريات  
نقل الأخشاب فوق مياه الأنهار او الخلجان العميقة ، وهو لا يزال يعتقد ان تلك  
الفترة من حياته تعادل في شقاؤها شقاء عمره كله .

كان عليه ان يتعاون مع زميل له في قطع الأخشاب في اعماق الغابة لحسابها  
ومن ثم كان عليهما ان يوصلا الحشب المقطوع الى بعض المتعبدن في الميناء ..  
كان زميل حمد الجديد شاباً من بعلبك ، محمد عبيد عبد الكريم وثق به  
حمد ثقة كبيرة ، فقد كان محمد رغم صغر سنه على غاية من الاعتماد بالنفس ،  
واستسهال الموت والعذاب في سبيل الحفاظ على كرامته حتى في ظل القيود  
والسياط والزناقات ...

كنا نقطع عدداً من الجذوع والفروع الضخمة القريبة من مياه الأنهار  
او الخلجان وخصوصاً قرب النهر الأحمر . اسمه على كسبه لونه بلون الدم ، ونتعاون  
على جبر تلك الأخشاب الى شواطئ المياه نربط الحشبة الأولى بجبال من ليف الى  
احدى الأشجار القريبة ثم نحمل احد البراميل الفارغة لربطه تحت تلك الحشبة ثم  
آخر مقابله عن رأس الحشبة الثاني تحت الجذع .

ومثله البرميل الثاني والثالث والرابع ، ثم نبدأ بربط الجذوع فوق هاتين الحشيقين بشكل طوافة ( رادو ) .

الكلام سهل اما العمل فلا تتصوروا صعوبة كان على الواحد منا ان يتعري ويغطس تحت الماء لربط الجذوع والبراميل .

كانت ارواحنا ترهق وايدينا تكلل وعيوننا تزوغ خلال الساعات الطويلة التي كنا نقضيها تحت الماء ، ولو كانت الجبال من الجبال العادية ، ربما كانت العملية اسهل لكنها من الياف الأشجار التي لا تطاوع .

كان طول الطوافة حسب الحشب بين خمسة عشر متراً وعشرين ، كان علينا ان نجر هذه الأخشاب الهائلة بفردنا نحن الاثنين ، الف طريقة استعملنا والف حيلة ، بعضها نجح وبعضها كاد يقصف اعمارنا .

وبعد ذلك بعد صراع يومين او ثلاثة مع البراميل والجذوع والجبال كنا نركب فوق هذه الطوافة نحن الاثنين ، ثم نفك الجبال ونبدأ بتوجيه الطوافة بواسطة مجذافين من جذوع الأشجار .

وتبدأ الرحلة الطويلة القاسية المدهشة المرهقة عندما يبدأ الجزر ، كانت سيرنا سهلا الى حد ما وان كانت تقف في طريقنا عراقيل كثيرة : صخور فائقة ، جزيرة صغيرة ، منعطف خطر ، ممرات ضيقة ، جذوع ميتة طافية ، كل ذلك كنا نتغلب عليه بالجهد والصبر .

الا ان الشيء الذي كان يزعزئنا ويهددنا بالفشل كانت مشكلة المد ، المد الذي كان يدفعنا الى الوراء محاولاً ارجاءنا الى النقطة التي بدأنا منها .

التقدم مستحيل والتراجع ليس في صالحنا على الاطلاق . ما العمل .  
كان تراجعنا اجباريا الا اننا كنا نحاول دائماً ان نقرب من الشاطئ ونجهد في ربط طوافتنا بأشجاره ، ريثما نستأنف رحلتنا مع الجزر الجديد .

لم يكن اقترابنا من الشاطئ دائماً في صالحنا ، ففي الشاطئ صخور  
وأعشاب والياب ورمال او وحول فيها اكبر الخطر على طوافتنا ومع ذلك كنا  
نغامر خوفاً من ان يحملنا المد الى اقصى مداه في داخل الغابة .  
صدقوني ، انني لا ازال ارتعب من مجرد ذكرها ، من مجرد تصورها ،  
هدت شبابي ، هدمت صحي ، ولكن كانت هي الطريقة الوحيدة لتوفير  
خمة فرنكات كل يوم ... وابداعها في نهاية كل شهر عند محفوظ ، الله بذكره  
بكل خير ...

## الفصل الثالث عشر

حمد ... حمد ... البشارة لي يا حمد ...

صوت من هذا الذي يدوي في ارجاء الغابة ؟ ..

وقف حمد فوق طوافه عاريا والماء يسبح على جسمه الشديد السمرة ويتساقط  
رذاذاً من بقايا شعر رأسه ومن شاربيه الكشيفين الأشيبين ... فقد كان يخرج  
لتوه من قاع النهر يتنفس بعض الوقت ليستأنف عمله المضي تحت الماء .  
انه صوت محفوظ ... انه يحمل الأخبار السارة .. اي اخبار ؟ ..

— عفوا يا حمد .. عفوا ...

احس حمد بان الطوافة تميد به ، وبان الشمس قد غامت ، وبانه يحتق  
هل يرقص من الفرح ؟ هل ييكبي ؟ هل يصدق ؟ !  
لم يستطع ان يظل واقفاً ، احس بركبته ترتجفان وبقلبه يخفق بمجدة ..  
وانحنى يحاول ان يجلس ليستعيد شيئاً من هدوئه .  
الا ان محفوظ كان يقفز ويعانقه عناقاً شبه مجنون ، ثم يلتفت الى زميل  
حمد الى محمد عيد مشجعاً :

اعتقد انه عفوا عام ... ما احلى الفرج بعد الضيق ... الحمد لله  
الحمد لله ...

جلس حسين في مكتب صديقه مدير البوليس يستفسر عن طريقة مغادرة

الجزيرة والعودة الى الوطن وكان المدير يؤكد لهم دائماً أنهم لا يستطيعون مغادرة البلاد دون تأشيرة قنصل ، دون فيزا ، ومن ثم فإن أجرة الطريق يتحملها المسافر نفسه .

من أين لسورية قنصلية في الغويان؟ ولما لم يضر على استقلالها بضعة شهور .

أما أجرة السفر فأمر أقل صعوبة وإن كان العفو مفاجأة لم يتوقعها أحد حتى حسين نفسه ، ما أشد مرارة تلك الليالي التي قضاها حسين وحده ورفاقها في انتظار حل لتلك المشكلة ، ما أشد قسوتها ، غريق على شاطئ البحر يتعسس صخرة النجاة ولكنه لا يستطيع أن يجد موضعاً ليده فيها . . .

إلا أن حسين استطاع أن يمسك يده ويد رفاقه من الصخرة العاتية :  
الفلوس . . .

فتح مدير البوليس كفه وقبض أربعة آلاف فرنك . . . أجرة عامل كاملة لمدة يوم ، ومد المنفيون العائدون المحظوظون يد المساعدة والمعونة بسخاء وشهامة الى رفاقهم المعوزين . . .

لم يحاول أحد أن يخفي شيئاً ! هذا كل ما أملك ما زاد عني خذوه أعطوه لمن يحتاج من رفاقي . . .

وأقبلت الباخرة تنهادى . . . ما أجملها . . . ما أعظمها ! قد تكون هي نفسها التي حملتهم إلى المنافي . . . قد تكون هي نفسها التي كانوا يسفرون لتفريغها من البضائع والأبقار ومع ذلك فقد بدت في أعينهم اليوم في غابة الجمال والعظمة والروعة . . . أنها تسكاد تضحك لهم ، تسكاد ترقص . . .

هل يصدقون حراسهم بأن الطوافات تحملهم إليها أحراراً بعد عبودية وعذاب رهيبين طوال عشرين الى خمسة وعشرين عاماً ؟ ! .

وبأنهم يخرجون أحياء من مدينة قاين حفارة قبور الغرباء ومن الغابات الرهيبة  
الوالغة في دمائهم ودموعهم وعرقهم . . .

كانوا يؤمنون وظلوا يؤمنون بأنهم عائدون . . . عائدون إلى الوطن .  
فلماذا ارتأبت حواسهم اليوم بما آمنت به قلوبهم طوال أعوام طويلة مريرة . . .  
أنهم بشر معذبون . . . يعيشون على الأمل ، على الوهم ، وهام مثل  
جميع البشر يضطربون ، يتلجلجون في اللحظة ذاتها التي يتحول فيها الأمل أو الوهم  
إلى سعادة .

أنهم يغافون أن تكون تلك السعادة من بعض أوهامهم الكثيرة التي  
عاشوها ومن بعض أحلامهم التي ما للذفوا بها ساعة الا وتجرعوا مرارة خبيثتها  
ساعات . . .

وانطلقوا يتحسون سلالم الباخرة ويشدون عليها بأيديهم وقلوبهم ، وهم  
يتلمسون أشياءهم للقليلة التي يحملونها ، ويتسمون بسخربة من أدوات السفرة التي  
تجبرهم أنظمة الباخرة على اصطحابها ، شوكة ، سكين ، ملعقة . . .  
شوكة وسكين لجماعة عاشوا على العدس والكواك طوال عشرين عاماً  
أو أكثر ! . . من منهم يعرف كيف يحرك يده بها دون أن يضحك هو  
من نفسه ؟ ! .

وعندما بدأت الباخرة تتحرك وهي تلتف الدخان والصفير المبحوح  
كانت الأيدي ترتفع مودعة وتلوح للفضاء ، للأفق ، للغابات الكثيفة السوداء لمدينة  
اللتك والأكراخ للعبودية ، للذل ، لكرامة الانسان المهدورة لشبابه المتلاشي في ذكريات  
الدم والدموع والسياسات والزناقات ، للرفاق الذين ما زالوا يرسخون في اغلال  
الرق وهم يتطلعون اليهم بزيج من مرارة وفرح . . .

كانت الأبصار معلقة في تلك البقعة الداكنة الحضرة الشديدة السكون

حتى الموت نحدثق فيها وهي تبعد شيئاً فشيئاً ثم تصغر وتصغر حتى تختفي مثلما  
يتلاشى الدخان في الفضاء .

وفي المساء كانت السماء في غاية الصفاء والنجوم في غاية الزهو ، والنسيم في  
غاية الرقة ، عندما راح حمد يستلقي فوق كرسيه البحري الطويل وهو ينفث دخان  
سيكارته في هدوء وسكون .

لقد كان يستلقي في كثير من الليالي في كوخه في الغابات خلال الأعوام  
العشرة الأخيرة ، كان النسيم يداعب خصلات شعره في بعض الليالي وكانت النجوم  
تبدو لامعة والسماء صافية جميلة عظيمة .

إلا أنه لم يستطع أن يصدق نفسه بأنه قد رآها في ليلة من تلك الليالي  
في مثل هذه العظمة والجمال والروعة ولم يستطع أن يصدق نفسه في أن نسيها  
في نعومة هذا النسيم وفي لطفه قد مر به . . .

جس علبة الدخان الفارغة ثم رماها فوق الأرض الحشبية ، ومد أصابعه  
الناحلة الى علبة جديدة راح يفتحها بتحمل وهو لا يزال يفرق عينيه في السماء  
الصافية المتلألئة .

الناس حوله غارقون في النوم أو في أمرتهم وبعض البعارة يتناوبون العمل  
في هدوء ، أما هو فقد أحس بأنه على غاية من الراحة والسعادة في جلسته التأملية  
الحالمة . . .

أمس سياط وسجون وحرمان . . .

أمس خوف وجوع ومرض وحنين . . .

وها هو الغد المشرق الطلق ، غد الحرية والكرامة . . .

غدا تطل أرض الوطن ، غدا يطل الأهل والأصحاب . . . غدا تهرع

العجوز تشد بيد على لثامها وتلوح بيد للقادم الأشيب الناحل المتهدم . . .



ستعرفه بقلها بغريزة الأمومة فيها ، وقد تكذب عينها وأاملها ، وهل يكون ذلك الفنى الأحمر بشاربه الأسودين النحيبين وقامته المليئة المنتصبة كالرمح وعينه المتوقدين وشعره الفاحم المسترسل ، وهل ذلك الفنى البامم الشديد المرح كعصافير الدوري ، هو هذا الشيخ الضامر بقبعته وخده الناقى وعينه الغائرين ، وجسمه المقوس ، الناحل ، المتجهم ، المحروق ، الشاحب العليل ...

ولكنها لن تحزن سيكون فرحها كبيراً عارماً به . . . يكفي أنها ستضمه الى صدرها وستسمع دقات قلبه النابض بالشوق والوفاء .  
وأحس حمد بجمرة الميكارة تلذع أنفله فرمأها في حركة مذعورة وداسها بحذائه مرة بعد مرة .

ومن ثم سار متمهلاً نحو غرفته في حين كانت لباشير فجر هادى شديد الصفاء تبدو في الأفق البعيد .

ولذ لحد ان يستلقي كل لية فوق كرسيه الطويل ينث دخان سيكارتة بهدوء غارقاً بين ذكريات الأسى وأحلام الغد ، لا يغفو الا مع اشراق الفجر ، حتى صباح اليوم الثامن عندما أطلت من بعيد الأرض الداكنة الخضراء أرض المارتينيك ..

تذكر كيف أقبل بالأسى على القويان وفوق صدره أثقال العبودية وفي عينيه ظلام المستقبل الرهيب ، أما الان فقد كان يقبل بقلب عارم بالفرح والأمل ، وبنشوة العائد من معركة عنيفة مرهقة منتصراً ...

كان المركب الكبير ، عابر الأطلسي ، ينتظرهم لقد بدت باخترتهم الى جانبه طوافة كبيرة ، وهامم يتجولون في أرجائه للشديدة الاناقة والنظافة في مطعمه الواسع المزدان بالصور الجميلة والكرامى الجلدية الشديدة اللعان والموائد المكسوة بالشراشف البيضاء الناصعة ، والمزينة بالزهور والأقداح المشرقة ، وها

هو الجرسون يعني باحترام وأدب أمام الطاولة وهو يوزع الطعام الشهي فوق  
صينية كأنها من فضة ... خمسة صحنون لكل مسافر ...

يا حمد ... هل تعلم ؟! خمسة صحنون أمامك ، تعبق رائحتها الشبهة  
بأنفك ، وشاب وسيم بامم يسألك بلطف وبشاشة عن المشروب الذي ترغب ...  
في المساء موسيقا ورقص وطرب ، وفي النهار أحاديث وزيارات متبادلة  
ولهو ، وفي غرفة النوم مرير كالفل ، كالباسمين ، وجرس يكفهي أن تضع اصبعك  
عليه حتى يهرع عامل يعني باسمأ وهو يرجو أن يقدم لك خدمة .

وعندما كان المركب الكبير يتوقف بعض الوقت في جزائر الغوادلوب  
والترينيداد كان يسمح بالزول الى البايصة ولا يزال حمد يتذكر انه عندما راح  
يتجول فيها تعرف الى بعض أبناء العرب المهاجرين ، ومع أنه يأسف لأنه نسي  
أسماءهم مع الزمن ، الا انه لا يزال يذكر بأنه ، بل للمرة الوحيدة في حياته  
يدل بعض قطع العملة التي يحملها لشتري قنينة كولونيا ...

لقد رأها تتوقد في واجهة أحد المحلات كأنها قطعة من أشعة الشمس  
المذابة وأحس أن روح الشباب الجيلي تتوالب في صدره ...

ألا يحق له أن يحمل الى أحبابه هناك شيئاً غير الذكريات البشعة  
السوداء ؟ ! ..

وفجأة ، انتصبت أمام عينيه صورة واحدة من تلك البالي الرهية التي  
عاشها في الأدغال .

حاول أن يتجاهلها ، أن يطردها وأن يهرب منها ، الا انها كانت  
لا تترجح وهي تلف بينه وبين الفضاء اللامتاهي كما تسدل الستارة  
الداكنة السمبكة .

تناول سيكارة وأشعلها بقلق ما لبث أن تحول الى استسلام المنهزم أمام  
لصور الرمية المتلاحقة ...

... كان يعود الى العاصمة « كايان » ، خلال الغابات المتشابكة  
المظلمة وجيداً بلا سلاح ، يشد الى ظهره بعض الأرغفة وصرة من  
« الكوك » ، ويتوكأ على عصا قصيرة ثقيلة يزيع بها من أمام وجهه الألياف  
والأغصان المتدلية .

وبدأ يحس بان الغاية تزداد ظلاماً ، وبأن الليل بدأ يقبل ، الليل الخفيف  
الغادر .

كان حمد شجاعاً . الا ان الحوف لم يعد عيباً في مثل تلك المجهول الشديدة  
الخطر ، الغارقة في ظلام رطب مفرع .

راح ينبطح بين الحين والحين ، ويهدق في الظلام الدامس يستوثق من  
سيره ، ويتوجس حذراً من كل حركة او حفيف ...

وبغثة هبت عن شماله نسمة باردة ، شعر معها حمد بانها قادمة عبر فجوة  
في الغابة ... لعلها طريق ...

انحرف في حذر ثم انبطح من جديد يتفحص المكان بعينه واذنيه  
ومشاعره ، ويتحسس يديه .

كانت بعض الاضواء الخافتة تختلس طريقها من السماء الى الفجوات  
الضيقة ، وخيل اليه انه يلمح على ضوئها طريقاً معدنياً ... لتقدم بحبو ومد يده وهو  
شديد القلق ...

كان البريق يريق نصل لحجر طويل ، قد يكون حربة عمكربية او  
بقية سيف ، وقد تمددت الى جانبه فاس يبدو انها جديدة وثقيلة .

رفعها في الهواء ثم رماها ، فهو متعب لا يستطيع ان ينقل كاهله مجملها ،  
اما النصل ، فقد كان هدية من السماء ، احس معها بأنه استعاد رجولته وشجاعته ،  
وبان الغابة لم تعد مظلمة رهبة مفزعة الى هذا الحد ...

تقدم وهو يمز سلاحه بين الحين والحين في حركة تشجيع مصطنع ...  
ولاحت على بعد امتار منه قطعة سوداء عرف بالخبرة انها كوخ خشبي  
من اكواخ الحطالين .

احس بشيء من الطمأنينة وراح صوته يدوي في الغابة في محاولة لابقاظ  
صاحب الكوخ ، الا ان نداءاته المتكررة المرتجفة ظلت بلا جواب . ومع ذلك  
فقد قرر ان يقضي بقية ليلته في ذلك الكوخ المهجور ، وقد احس فجأة بأنه  
متعب مرهق ..

تقدم ، إلا انه ما لبث ان تعثر بقطعة قماش ، رفعها وراح يتعسها ..  
كانت قطعة بنطلون ممزقة وان لم تكن بالية ..

لم يكتفثر لها بل تركها تنساب من بين أظلمة المرتجفة بلا اهتمام ، وفي  
اللحظة التي كان هم فيها بان يدخل الكوخ احس بأنه يدوس شيئاً طرياً ، فقفز  
الى الوراء مذعوراً ، وهو يضرب بنصله في الهواء ضربات مجنونة ويصرح صرخات  
مدوية مرتجفة .. الا ان شيئاً ما لم يتحرك ، لم يختلج ، ورويداً ورويداً استطاع  
حد ان يتالك نفسه ثم ينحني باهتمام ليرفع بيساره قطعة من قدم انسان ..

راح يربط بسرعة بين القاس و قطعة البنطلون وبقية لتقدم فادرك وهو  
يرتجف ان هناك ضحية ..

ها هو الان يواجه الخطر الواضح في قلب الادغال الغادرة ، وفي ساعة  
متأخرة من ليل رهيب مظلم .

هل يلجأ الى الكوخ ؟ لا ان الكوخ لم يستطع ان يحمي .. وهذه هي بقايا صاحبه .. فليبتعد إذن .. انه الحل الافضل .

استدار وهو يتصب هرقاً بارداً ، وراح يتلمس طريق العودة وهو يصرخ ويلوح بنصه في الهواء لا ليرهب العدو المجهول بقدر ما كان يحاول ان يبعث في نفسه الشجاعة والثقة ، ومن ثم فقد انطلق يغني بصوت اراده عالياً صافياً الا انه بدا رغم كل جهده مترجراً يعلو وينخفض بلا اتران .

كان يحمر ساقبه جراً عندما بدأ يقترب من النهر ، وراح يصرخ بلفظة الاهالي الزنوج ، فهو يعرف بالخبرة ان هناك قارباً لنقل المسافرين من ضفة الى ضفة ، في مناطق التجول الرئيسية ..

تحرك حمد في « الشيزلونج » وقد جف حلقه وبدأت تدب في جسده الناحل قشعريرة خفيفة ..

كان هدير الباخرة يقطع سكون الليل بنغمة رتبية خافتة . والاضواء القليلة الساهرة تراقص في اجواء المقاصير والممرات ، وفي السهاء الشديدة الصفاء كانت النجوم اشد اقتراباً واشد لمعاناً ..

حاول أن ينسى ، ان يبتعد عن ذكريات تلك الليلة الرهيبة ، وهو يحرق في الفضاء الواسع المتلألئ الليل ، الا انه لم يستطع ان يشيح بوجهه عن صورة ذلك الزنجي العاري وهو يقترب منه في قارب يحوف من جذع شجرة ، وفي عينيه بريق حذر واستغراب ، لينقله الى الضفة الاخرى واجماً باذي الانزعاج ..

ولم يستطع أن ينس كيف امضى بقية تلك الليلة في مصنع للخشب مهجور متهدم واسع الارعاء كأنه قلعة قديمة خربة ..

كان خائفاً ، مرهقاً ، مرتجفاً ، اشعل النار واستلقى على طاولة ضخمة

ممبكية وهو يحاول ان يغمض عينيه ، الا انه مرعان ما افزعه دوري هادر مفاجيء  
ينبعث من شقوق الجدران وراح يحوم في الفضاء ..

انكفاً على وجهه وسمر جسده المرتجف المرهق فوق الطاولة ، وهو يغطي  
اذنيه بيديه ..

انما اعشاش زفاير هيجها الدخان والهبب .. وكانت الطريقة الوحيدة  
لائقاء خطرهما الداهم ، ان يتاوت ان يلتصق بالطاولة دون حركة كأنه قطعة منها ..  
انما المرة الوحيدة التي احس فيها بالذل .. ومع ذلك فهو لا يزال يتنسم  
وهو يروي هذه الحادثة ابتسامة فيها مزيج من المرارة والدعابة ..

مسكين حمد ، انه لا يزال الى اليوم يعيش في ذكريات المنافي والادغال .  
كان يحلم وهو على ظهر الباخرة بانه ينطلق نحو الحرية ، نحو السعادة نحو  
الطمأنينة ..

رفاقه القدامى نسوه وامهلوه .. سيفرحون به وسيغمرونه بفيض من  
الاشواق والحنين ، والصغار الذين لا يعرفهم سيجلسون الى جانبه في المضافة  
يستزبدون من ذكرياته وهو يوزع عليهم بيده فناجين القهوة المرة واكواب  
الشاي الداكن ..

سينسى كل آلامه وكل ذكرياته السوداء في الوطن الضاحك الشديد  
الاعتزاز ...

ومع ذلك فان سحبا صغيرة من الهم العابر ستمر به ، انه سيظل يذكر  
بانه لم يعد شابا معتدا بفتوته ، بقلبه وفرواعه ، وبانه يحمل في حناياه وفي اجزاء  
متفرقة من جسده آثار المنافي والتشريد والعذاب والمستشفيات ، وبانه قد ترك  
هناك ، خلف الغابات الشرسعة الغادرة رفاقاً له ، بعضهم غيبته المجهل الى الابد

او الى حين وبعضهم الاخر لا يزان يتأرجح في اجواء المعتقلات الرهيبة والغابات  
المتشابكة بين الرجاء واليأس .

ان يسأله احد غدا عن رفاقه من العرب المغاربة ، لا احد هناك يعرفهم  
وان كان الناس في بلده يحسون بالاشفاق نحوهم ، الا ان اقرباء يونس واصدقائه  
صيقمون مناحة عندما يعود حمد وحيداً الى السويداء بعد ان شاهد بعينه نهاية  
اخيه في السلاح ، وسيبكي كثيراً اقرباء حسين العاقل وهم يرتقبون عودته يوماً ما  
شيخاً متهدماً غريب الزري واللسان مثل حمد ... او لا يعود ...

## الفصل الرابع عشر

كانوا ستة يقفون وسط الزحام الهائل على رصيف الميناء في مرسيليا ،  
يوطنون بالفرنسية الركيكة حيناً ويتابعون نقاشهم بالعربية المتعبة المرقعة  
أحيانا كثيرة .

وكان احد الستة اكثرهم انفعالا في حركات يديه وعينه و اكثرهم مشقة  
في متابعة الحديث وفي التعبير عن افكاره ، الا ان الحمسة الاخرين استطاعوا  
ان يفهموا منه بانه ارمني الاصل عائد مثلهم من منافي الغويان ، الا انه لا يرغب  
في العودة الى سورية بل انه يفضل البقاء في فرنسا ... وماذا ينتظره في سورية؟ ...  
لقد قتل ابوه في المذابح التركية الارمنية . وماتت امه في حلب وهي  
تنتظر عودة ولدها الوحيد بلا جدوى .

وهكذا بدأ « اربعين » يحس بان ارتباطه بالشرق يتلاشى ، فلا وطن ...  
ولا اهل .. ولا امل ..

وكان عناق طويل اخنقى على اثره اربعين بين الزحام وهو يلوح بيديه في  
حركة جناحي طائر ينطلق ..

وعاد الرجال الاغراب الحمسة الى التشاور والتساؤل : حين محفوظ



ورشيد العلي من شمال سورية ومحمد عيد عبد الكريم من بعلبك واحمد فلاح من درعا وحمد عباس دياب من السويداء .

كلهم منفيون قدامى ، انقطعوا عن العالم والحضارة سنوات طويلة  
وها هم الان يجاهدون مدينة مرسيليا الضخمة بتعقيداتنا وزحامها وصرعة حركتها  
وضجتها والغازها .

كان حسين اقدرهم على الحركة في مثل هذا الجو الغريب وهذا الحشد  
البشري المتلاطم ، فليكن هو القائد والمرشد ..

وكان مهم الاول ان يأكلوا ... ان يشبعوا ، انهم لم يكونوا جوعاً  
الا انهم جميعاً شعروا بانهم ... برغبة في مطاردة البائع المتجولين بعيون جائعة  
كعيون الذئاب .

تقدموا من سيدة سمينة بيضاء ، كقطعة من الثلج يتلاعب النسيم بشعرها  
القصير الاشيب ، وهي تتجول بشيء من الحفة خلف صناديق الخضار والفاكهة .  
وهي تنادي بصوتها الدافئ ...

— بونجور مدام .

— بونجور ميسو .

وابتسمت ابتسامتها التقليدية المرحة .

... الله كم كان التحدي مرهقاً جائراً ..

سيدة بتسم ... وخضار وفاكهة لا تفل اغراء وفتنة ... وتوزعت النظرات  
المشدوه التي كانت تبدو بلهاء بين الوجه الطلق وصناديق الفاكهة الزاهية ...  
وتقدم حسين من صندوق العنب الذهبي وأشار بيده وتمم كلمات لم تفهمها  
البائعة ولم يكن حسين نفسه يفهمها . .

لقد فُتِش طويلاً في ذاكرته عن الاسم الفرنسي لهذه الفاكهة واجهد  
ذهنه ولكن دون جدوى .

— دي ريزان .

وي مدام .. وي مدام ... آن كيلو ..

ورفع اصبعه في الهواء ، وهو ينقل نظراته المعجبة بل الوالهة بين الصناديق  
المتعددة الالوان والحجوم .

آه ما كان اسعده لو استطاع ان يلتهمها جميعاً ... جميعاً دفعة واحدة ...  
وقفزت الى ذاكرته صورة مطعمه الشديد التواضع في « كايان » وابتمسم  
ابتسامة اشفاق ، وهو يلقي على رفاقه نظرة فاحصة فاذا بهم في مثل ذهوله وارثا كاه  
وفي عينهم ما في عينه من هم ...

واستفاقوا من سكرتهم على صوت السيدة الهادىء — سواسانت فران ..  
مسيو .. ستون فرنكا .. اجرة عامل ليوم ونصف في الغروان .. اف ..

وانطلقوا يلتهمون العناقيد في استخفاف واضح بالنظرات الغريبة المستهجنة  
التي كان يلقيها عليهم المارة ، وقد تأبط احد الرفاق الحمة رزمة كبيرة من  
البصل الأخضر .

وانطلقوا في اتجاه الفرن القريب حيث تفوح رائحة الخبز الطازج الشهى .  
رفع حسين اصبعه — بطلب كيلوبن من الخبز الطازج وهو يبتسم  
لصاحب الفرن .

ودهمش الرفاق وهم يرون الفرن يمز رأسه ولا يتحرك .

وكرر حسين الاشارة والطلب وهو يحسب ان الرجل كان في غفلة عنه .

غير ان الفرن استطاع ان يكتشف من اشكالهم ومن تصرفاتهم ومن

لهجتهم انهم غرباء ، انهم قادمون جدد .. ومن ثم استطاع ان يفهمهم بشيء من الصعوبة وبكثير من الباقة ان الحبز يباع بالتقنين ، وان عليهم ان يحصلوا من المحضر على بطاقات تموين .

وارشدهم صبي الفران الى الدائرة المختصة ، والتف حولهم بعض الموظفين بكثير من الفضول بعد ان ترددت في اجواء الغرفة كلمات : لاغويان .. سيدي .. داماس .. ومع ذلك وبالرغم من كل التفصيلات التي امكن للرفاق الحمة ان يقدموها للمسؤول ، فانه ظل يمز رأسه وهو يحاول اقناعهم بان الحبز متوفر في جميع مطاعم المدينة وبان لا موجب للحصول على بطاقة تموينية .

واشند الجدل ، فالغرباء الحمة لا يستطيعون ان يتحملوا اعمار المطاعم وهم يفضلون ان يأكلوا في الهواء الطلق او في الغرفة التي سينزلون فيها حتى لا يضطروا الى الاستجداء بانتظار استئناف رحلتهم نحو الشرق

ولاحث في العيون للفضولية نظرات الاستغراب لتلك الرزمة من البصل الأخضر يتأبطها الغريب الحليق الأشيب وتحامل الرجل النظرات المسمرة على رزمته وهو المحروم منذ عشرين عاماً من هذه الخضار الشبيهة .

والتفت بشيء من التهديد والحزم وهو يؤكد بلفظه المبهين وبحركات شديدة التعبير من يده الحرة بانه مستعد لحطف الحبز خطفاً ان هو لم يحصل مع رفاقه على البطاقة .

وشعر المسؤول بالاحراج فتناول بيد مرتجفة بضعة بطاقات ثم قدمها وهو يحس بانها تنتزع منه انتزاعاً .

واهتدى الرفاق الى غرفة متواضعة حشروا تحت امرتها اشياءهم القليلة وجلسوا يرشون بمرح الأطفال وسذاجتهم رزمة البصل الأخضر والأرغفة الشبيهة الساخنة .

وكان المساء يقترب وهام جميعاً بشعرون بأن المدينة الصاخبة والاضواء  
الباهرة المتعددة الألوان تدعوم بل تحاول اقتلاعهم من الشرفة الضيقة .

واحسوا جميعاً بمجوع أشد ضراوة لم يستطع التفتيش عن الرغيف طوال  
اليوم ان يخمد به بقدر ما استطاع ان يحجبه من حين الى حين ، اما الآن وقد  
امتلاأت بطونهم ، فقد أحسوا بان ذلك الجوع الآخر المفاجيء يستبد بهم ويصرخ  
في اجسادهم .

انهم رجال .. بشر حرموا من النساء .. من حديثهن .. من بساجن ..  
حتى من منظرهن السنين الطوال .. وهذه هي مرسيليا المدينة الضخمة الصاخبة  
تخطر فيها وتزفر كالفراشات الملونة الهائلة جنيات من البشر بشعور من اشعة  
الشمس وعيون بلون البحر واجساد كالحرير .. كالمرمر ..

كان حمديف امام واجهة الفرن يستعرض الحبز والاكعك والبسكويت  
الشهي في انتظار خروج رفاقه ، عندما دفعته صبية بكتفها العارية البضة وهي  
تسير على عجل كأنها تطير الى موعد .

— باردون مسيو .

واتبعنها بابتسامة خاطفة ولفتة غزال مالبت ان تغاب بين الزحام المتأوج .  
وشعر حمد بتبار يسري في عروق كان يحسبها جافة ، وباضطراب في  
حنايا صدر ظنه تحطم الى الأبد ...

وعندما خرج الرفاق لم يثر منظره المرتبك كثيراً من اهتمامهم ، فقد  
كانت البعداء لا لفارقه الا لماماً ومن ثم فان فرحهم بالأرغفة الطازجة البيضاء  
الساخنة اللامعة كان يطغى على مشاعرهم في تلك اللحظة .

بقي حمد وحده في الشرفة يغيب من الأنوار والألوان والحياة المتدفقة

أمام عيني غبا في استسلام هادئ، تأملي صامت ، في حين تسلسل الرفاق الى الحياة نفسها يعبون منها دون ارتواء حتى الصباح .

وفي اليوم الثاني كانوا يجمعون على وجوههم في أنحاء المدينة الهائلة ...  
زحام ... سيارات ... أبنية ... قطارات ... حافلات ...  
مخازن ... مصانع ...

آه كم هي معقدة هذه المدينة ... كم هي مخيفة ومع ذلك كم هي جميلة  
مغربة نابضة بالحياة ...

وقادتهم اقدمهم من جديد نحو الميناء ، انه مدينة ثانية متحركة اشد  
حيوية وتعقيدا ، وان تكن اقل رونقا واغراء .

وفي الميناء كانت الوجوه واللباس والازياء واضحة التباين ، كافة اهي  
معرض اممي . حتى المقاهي والمطاعم المنتشرة على الشاطئ كانت واضحة التنوع  
في واجهاتها وزبائنها وان تكن في اغلبيتها عمالية شعبية .

واستطاع حسين من خبرته السابقة في رواد المطاعم ان يكتشف احد  
المطاعم المغربية في زاوية من زوايا الميناء الهائل الاتساع وعلى ابواب المطعم  
الزجاجية بدأ الجدل والتشااور للدخول او العودة الى البيت ، نعم البيت ،  
بالنسبة لهم على الاقل .

واستطاعت فكرة حسين في الدخول ان تقتصر ، اليس هو المرشد  
والقائد ؟ ...

جلس الخلسة حول طاولة صغيرة منخفضة ضخمة القوائم وطلبوا الشاي -  
فرنك فاي ... فرنك سكر ...

وفي انتظار الشاي ، كانت عيونهم تتجول في القاعة الواسعة العالية

المتعددة الاعمدة والمزينة بزخارف مغربية ساذجة ، وكأنهم يفتشون عن وجه يعرفونه او صديق يرتقبون وصوله المفاجيء من المجهول .

كان الرجال القلائل يلعبون الورق في صمت وهدوء لا يقطعه غير صوت ارتشافهم لكؤوس الشاي ، وما عثم المقهى ان بدأ يغص بالزبائن وبدأ جوه الهادىء الحالم ينقلب الى جو من الفوضى والصخب والدخان المتصاعد والنداءات المتكررة ...

وتقدم الجرسون ، شاب اسمر نحيل ، يبدو ان يده اليسرى كانت عاجزة عن الحركة ، واخذ يوزع الاقداح السمرءاء في حركة آلية دون اي كلمة او بسملة ..  
- اسمع يا احمد ، نحن من بلاد الشام ، كنا في المنفى في الغويان وراء البحر الكبير ، ونريد العودة الى بلادنا ، نحن غرباء هنا ، نرجوك ارشادنا الى اي شخص يستطيع ان يساعدنا على انهاء معاملاتنا .

هز احمد رأسه ثم انحنى انحناءة خاطفة ألقبها بشبه بسملة وانطلق نحو زاوية نائية من زوايا المقهى حيث وقف في شبه استعداد يحدث رجلا اشيب ، في جبينه اثر جرح قديم كان بطالع جريئة فرنسية بكثير من الاهتمام والقلق .

طوى الرجل الجريئة وتأبطها ثم تقدم بكثير من الهدوء والتجهم صوب الغرباء الخسة وشعت ابتسامة مجاملة في وجهه النحامي وتممرحاً وهو يتناول بنفسه كرسيّاً من طاولة مجاورة .

اهلا ... انتم من بلاد الشام ... من بلاد سيدي عبد القادر مرحباً بكم ..  
ودار حديث طويل حول الطاولة المنخفضة ذات القوائم الضخمة ، وضرب موعد في الغد في نفس المكان والزمان .

وعندما وقف حسين يد يده الى جيبه ليدفع الحساب كان المغربي الاشيب

يرفع حاجبيه وهو يتطلع خلسة الى عامل المقهى الذي انصرف فوراً الى ركن آخر يجمع الاكواب الفارغة .

وفي اليوم الثاني جلس الغرباء الخمسة في الركن ذاته من المقهى وما لبث ان تقدم منهم الرجل الاشيب يتبعه شاب في مقتبل العمر ، على شيء من الاثافة .

واستؤنف حديث الامس ، ثم خاطب الرجل الاشيب رفيقه الفتى بلهجة فرنسية طليقة لم يستطع الرفاق الخمسة أن يفهموا منها الا بضع كلمات ومقاطع ادرك منها بعضهم ان الرجل يوصيهم ويعهد الى الشاب بارشادهم وتأمين مصروفهم .

وعندما هم الرفاق بالانصراف كان الشاب المغربي الانيق يرفع حاجبيه في وجه عامل المقهى مشيراً الى انه هو مسؤول عن الحساب .

الا ان الشاب لم يسمح لهم بالانصراف وطلب منهم بل رجاء ان يرافقوه الى المطعم القريب ، وعندما كان الرجال الستة يقتربون من الباب وهم يعمون بالخروج كان نداء يتردد عالياً في المقهى الذي توقفت فيه الحركة وساد صمت مفاجيء :

يا اولاد .. بالصلاة على النبي .. عندكم ضيوف من بلاد الشام .

وتقدم الرجل الاشيب يحمل بيديه صينية راحت تنساقط فوقها قطعات من العملة في رنين متفاوت النغم أو تقتاتر فوقها الاوراق النقدية المختلفة الحجم ..

وعندما كان الرجال يتجاوزون عتبة المقهى كان النداء لايزال يتردد ...

يا اولاد .. بالصلاة على النبي . عندكم ضيوف من بلاد الشام من المجاهدين ..

وفي المطعم أنبا الفتى الجزائري ضيوفه بان هذا المطعم مفتوح لهم ليلاً

نهاراً على حساب الجالية العربية المغربية في مرسيليا .

احس الرفاق الخمسة بالاحراج وكانوا في كثير من الاحيان يتهبون من تلك الضيافة ومن تلك المساعدات المادية التي كانت تجمع وتقدم لهم ، الا ان

الشاب كان يجهد في اقناعهم بان تلك الضيافة انما هي واجب وليست صدقة او منة ، ومن ثم كان في الغالب يقتحم عليهم الغرفة ليوصلهم الى المطعم او المقهى .  
وذات يوم قدم الهم الشاب خمس بطاقات سفر من مرسيليا الى باريس  
بالقطار مع كتاب توصية وبطاقة بعنوان احد الاصدقاء العرب المغاربة في  
باريس . ومن ثم بدأ يشرح كيفية الوصول الى القطار وكيفية مغادرة المحطة  
والحصول على التاكسي .

وفي الثامنة مساء كانوا يستقلون القطار من مرسيليا الى باريس ، ومرعان  
ما استغرقوا في النوم وهم يستعرضون ذكريات القطارات الرهيبة في الامس  
البعيد البعيد ...

وفي الصباح كانت الشمس تشرق على لوحة متحركة رائعة ... انما ار  
متدفقة ... وخضرة متلاحقة . وقرى ومزارع ومدن على غابة من الجبال والنوق  
والهجة ...

اف ... كيف يستطيع هؤلاء الناس ان ينعموا بكل هذا الجمال  
والخير والسعادة وهم يزجون بالالوف من ابناء الانسان في منافي الغويان  
وسجونها ومجاهلها ويسخرونهم في اعمال الثيران ؟ .. كيف يمكن لهؤلاء الناس  
الدائم المرح والابتسام المرفهي الاحساس ، الوديعين ، الودودين ان يكونوا  
اخوة وابناء لاولئك الجلادين الاجلاف في المستعمرات وفي بلدان الانتداب ؟  
تساؤلات هيمنت على اذهان الغرباء الحمسة الذين يستقلون القطار السريع لأول  
مرة في العمر . والذين ظلوا يربطون هذه المناظر الرائعة الجمال ، النابضة باغنى  
ما في الحياة من بهجة وانس بذكريات المنافي الممعة في القسوة والظلم .

كابوس ثقيل حاولوا ان يتخلصوا منه مرة واحدة ، ان يخففوه ، ان  
يجبوه ولكنه كان يتشبث يلتصق بهم بعروقهم وجلودهم ، انهم برغم كل مشاعر



الانتصار الوطني ونشوة الاستقلال والحربة لايزالون حتى الان يخافون من ان تكون حلماً جديداً واهماً من الاحلام الكثيرة التي عاشوها طوال سنوات المنفى والاشغال الشاقة المرهقة .

وعند الظهيرة كان مراقب التذاكر في القطار يرشدهم بشيء من البشاشة الى المحطة التي سينزلونها .

وما ان هدأت حركة العجلات وانقطعت الصافرة عن نداءاتها ، وفتحت الابواب حتى كان الرفاق الحمسة يشقون طريقهم بكثير من الارتباك والقلق وهم يحاولون باستمرار ان يظل بعضهم قريباً بل ملتصقاً ببعض الآخر خشية الضياع بين هذه الامواج البشرية والمتاهات الشاسعة من الردهات والمداخل والاروقة والابواب .

وعندما كانت تنقلهم التاكسي عبر المدينة الاسطورية الهائلة ، كانت اعصابهم قد بدأت تهدأ واضطرابهم يتلاشى تلاشي الضباب الشفاف في ذلك الصباح البهيج .

يا فرانسوا والله ما نطيع  
باريز مربط خيلنا ...  
لي ديرة ماله مثيل  
باريز ما تعادل لها ...  
اهازبيج شعبية كانت تتردد اصداؤها الحماسية في شعاب الجبال  
المضطربة والاحياء الدائمة الغليان وها هي تقفز الى الذاكرة كما يقفز الجني من القمقم المسحور .

ما اشد اعتداد اولئك الناس وهم يجعلون منها في اهازبيجهم مربطاً لحيولهم .  
ما اعظم تمسكهم بتواب الوطن واعتزازهم به وهم يفضلونه على عاصمة الدنيا . .  
آه ... كيف امكن لابناء بلادهم ان يتمردوا على طاعة هذه العاصمة الهائلة الجبارة ؟

كيف امكن لهم ان يرغموها على التسليم ؟  
لا شك ان الثمن كان دماء ودموعاً وشقاء وكفاحاً عنيداً بطولياً .

كان السائق يسير بشيء من السرعة وفي صمت مطبق وكانت الرفاق الخمسة يسبحون بانظارهم وافكارهم في هذا العالم السحري الشديد الغرابة لا يتكلمون ولا يتسمون ولا يتملكون كأنهم تماثيل تنقلهم السيارة الى بعض متاحف المدينة .

توقف السائق في منعطف بدا ضيقاً نسبياً وأشار الى الرجال ان يتبعوه الى مدخل بناء باهت قديم كما كثرت ابنية المدينة ، ثم رفع اصبعه في اتجاه قنطرة من الطراز المغربي ترتفع فوق مدخل خشبي ضيق ، واستدار ينحني مودعاً باسماء .

كانت اللافنة الكبيرة « بار عمروش » بارزة واضحة فوق باب المدخل وكانوا قد تعرفوا في مرسليها الى ما تعنيه كباريه ، ومع ذلك فقد ترددوا في ان يدخلوا بلا استئذان فليقرعوا الباب اذن ...

وقفع الباب شاب انيق بقميص بيضاء وربطة عنق بشكل فراشة سوداء وهو يفتح عينين مشدوهتين كأنه يستغرب ان يقرع انسان باب ملهى ...

ورفع حسين في وجهه بعد تحية قصيرة ، رسالة التوصية ، وعندما قرأ الفنى العنوان ابتسم ابتسامة عريضة مشبعة وانحنى باحترام وهو يدعوهم الى الدخول .

وتقدم حسين بشيء من الوقار يقدم الرسالة الى السيد الشديد السمرة الذي يكاد يبدو زنجياً لولا مبسمه الرقيق وشعره الناعم الشديد اللعان .

كان الملهى خالياً الا من بعض العمال القلائل الذين كانوا منهمكين في تنظيف المقاعد وترتيبها واعادة الاقداح البللورية المشعشة الى الواجهات الزجاجية .

والتفت الرجل اول ما التفت الى التوقيع في اسفل الرسالة ، واذبه بتوقف فجأة عن متابعة القراءة وبدعهم الى غرفة جانبية كانت تقوم بتزيتها

سيدة يبدو انها اوروبية ، ظلت تتابع عملها بعد ان بادات مع الرجل الاسمر بسمة ضاحكة .

ودعاهم الرجل الى الجلوس فوق مقعد طويل منخفض تزينه سجادة مخملية ثم انهمك في متابعة القراءة وهو يطلق عبارة ترحيب مقتضبة خاطفة بين الحين والحين .

وشعر حمد بارتجاف ظنه عابراً ، فشبك يديه فوق صدره بعصية وشد ركبتيه في حركة مقاومة خفية ، الا انه مرعان ما بدأت ساقاه ترتجفان ارتجافاً ظاهراً اضطر معه الى ان يعتمد بيديه كليهما على حافة المقعد الذي بدأ يهتز بدوره اهتزازاً خفيفاً متواصلاً ، وعندما رفع الرجل عينيه عن الرسالة هاله ان يجد وجه واحد من جلسائه في صفرة الاموات وهو يتقلص تقلصاً خفيفاً في حين كان المقعد بادي الارتجاف وقد اخذ الرجال الاربعة ينظرون بقلق واضح الى رفيقهم الذي كان ينتفض وكأنه ورقة كبيرة من اوراق خريف عاصف .

وامرعت السيدة تحمل معطفاً تلقبه على كتفي حمد ثم تناولت من غرفة مجاورة كيباً من الماء الساخن وقدحاً صغيراً من الكونياك .

واستطاع حمد ان يتعامل على نفسه وان يعتذر مما حدث في حين راح الرجل يخفف عنه بالتشجيع والابتسامة المشفقة ، ثم تناول من على المكتب القريب بطاقة خط على ظهرها بضعة اسطر وسلمها لهم وهو يصافحهم بحرارة :  
- انتم هنا في باريس على حسابنا ، اهلا بكم ...

وهذا عنوان الفندق ... ارجو ان تنتظروا هناك الساعة التاسعة صباحاً لتوصلكم السيارة الى القنصلية اللبنانية اذ ليس لسورية حتى الآن قنصل .  
وعندما وقفوا يستأذنون للانصراف شيعهم الرجل حتى الباب الخارجي وهو يوصي سائق سيارته بابعالهم الى الفندق .

وفي اليوم التالي كانوا يدخلون باحة بناء فغم مسور تحيط به حديقة لطيفة يرترف فوقها علم تتوسطه شجرة خضراء عرفوا فيها بعد انها الارزة .

كانت مقابلة القنصل مقابلة على غابة من اللطف والبشاشة ، فقد ترك الرجل مكتبه وجلس بينهم باسماء مرحباً ، وامر لهم بالقهوة وبدأ يستمع الى حديثهم بكثير من الاهتمام ، ثم رجاهم ان يعودوا الى القنصلية لمتابعة انجاز معاملاتهم .

وفي الجلسة الثانية طلب القنصل اسماء المنفيين والسجناء من ابناء المشرق العربي الاموات منهم والاحياء .

وفي المرة الثالثة كانت معاملاتهم قد انجزت وكان القنصل يرجوهم ان يقبلوا سبعة آلاف فرنك كمساعدة تمكنهم من الوصول الى الوطن وان يقبلوا ايضاً اجرة الباخرة .

ولا يزال الناس القلائل الذين يزورون حمد يستمعون الى حديثه الشيق الأغرب من الخيال ، يشعرون بمدى ما يمكنه من عرفان الجليل والاعتزاز باولئك الأصدقاء الشرفاء ، في مرسيليا وباريس .

ولم ينتظر الرفاق الخمسة موعد الباخرة التي ارتبطوا بها بعد ان انجزت معاملاتهم فاستقلوا اول باخرة تمكنوا من حجز امكنة فيها نحو الشرق .

وفي اليوم التالي كان احد مرافقي فيصل الثاني ملك العراق يتحدث بجلالته بما ترامى اليه من ان بين الركاب بعض المنفيين السوريين يروون لرفاقهم المسافرين عجائب وغرائب اسفارهم وسجونهم ومنافعهم ومجامل بلاد الغويات القادمين منها .

ولتفت الفتى الأسمر نحو المرافق ثم تتم :

— زين باباشا : استدعهم وخلصهم يسلووا !!

## الفصل الخامس عشر

شبع متجمع هزيل كان يستند بيديه الضامرتين الى حاجز المركب يضغط بين بقايا اسنانه لفافة تبغ ويمسح بين الحين والحين براحته خده النائي او يمر باصابعه على شاريه الأشعنين وهو يغالب نسيم الصباح القارس .  
كان يرقب الفجر في هدوه عنيد ، الفجر الذي لاحت نباشيره في الأفق البعيد .

فالساه لم تعد قائمة وقد بدت حواشيا غبراء باهتة تتسع بكل بطء وتدفع امامها رداء الليل الأشيب ، وتحيط الغيوم الخفيفة المتناثرة بهالة من ضياء خجول .

كان وحيداً ، فالتاس في غفوة او ركود والبعارة لم يحاول واحد منهم ان يقترب منه ، فقد احسوا انهم امام راهب مستغرق في صلاة واكتفى بعضهم بان يلقي عليه من بعيد نظرة احترام وقامل .

وبدأت دقات قلبه تضطرب واحس برجفة تهزه بين الحين والحين ، واخذت نهوّم في خاطره وامام فاطريه صور مهزوزة مشوشة تختلط فيها تنف من الذكريات البعيدة والقريبة ، واطياف غامضة من الغد المشرق .

ومع ذلك فقد كان شعور من السعادة هادىء عميق يهيمن عليه ويبعث

في نفسه مع الفجر البامم فجراً من الرجاء ومع انتصار النور نشوة من حلاوة العودة واللقاء .

ويبدو الأفق الآن اشد وضوحاً فالجبال العالية تلتحم فيما بقايا تلوج واللون الداكن بدأ يبيل الى الحضرة والخط المتعرج الهائم المتلاشي يزداد دقة وتفصيلاً في بعض اجزائه .

والظلال التي كانت تغلف السفوح لم تعد كلها كثيفة قائمة ، في حين اخذت تبسم من خلال الفجوات الضبابية شفاء القرميد الأحمر وباقات القرى الملونة المتناثرة .

ومع ان نظراته كانت مسمرة على هذه اللوحة الحبيبة الجميلة الرائعة الا ان افكاره كانت تحوم خلفها فوق لوحة بعيدة تلتفع بمندبل سميك ابيض تشع من خلاله اشواق ام .

ومع الصبح بدأت الباخرة تموج بالمسافرين في شبه فوضى ، واحس حمد بانه يقتلع نفسه من حاجز الباخرة ليعود الى اشيائه القليلة يتم بتزويدها وحزمها ، ولينحس عصا الأبنوس القصيرة التي حملها من هناك تذكراً مادياً وجيداً .

وجيداً ... لا ... عفواً ...

فقد كانت الضلوع المهشمة ، والساق الكسيرة والشيب والوجه المغضن الشديد الشعوب والسعال الجاف المتقطع ...

كلها كانت ايضاً تذكارات مادية لربع قرن من الرق والارهاق والعراك الرهيب الصامت الطويل بين اغراءات الموت الحلوة وانتفاضات الحياة المريرة .

وانطلقت صفارات الباخرة وبدأت عمليات التفتيش ، والجوازات ساعات احس فيها حمد بان كابوساً هائلاً يحتم على صدره المهشم ، وبان الزمن يحاول ان يقبعه باعز ما ظل يعيش من اجله ويتمناه طوال عشرين عاماً ، بان يلثم تراب اجداده قبل ان ينتصر عليه الموت .

وعندما بدأت القوارب الصغيرة تحمل المسافرين الى رصيف الميناء لم يلتفت الا قليلون منهم الى شيخ شاحب هزيل يضرب براحة كفه الارض ويرفعها الى شفتيه ثم الى جبينه وقد طفرت من عينيه الدموع متغلغلة في ثنايا شاريه ، اما هو فقد القى نظرة عجل على حلقات العنق والتوجيب المتلوجة المتدافعة ، وسمع دون اصغاء ، هتافها وقبلاتها وتمتماتها ومضى يشق طريقه بمجهد واضح بين الزحام ، لا يعرفه احد ولا يهم به احد ومع ذلك فلم يساوره اي انقباض او غيرة فقد كان فيض من السعادة يغمر كل حواسه ، ونفحة من كبرياه تهب مع كل نبضة من نبضات قلبه .

وانطلقت به سيارة تهدر بجحاسة واعتداد وراحت تطوي بسرعة مذهلة الدروب الصعدة المتعرجة ...

لم يشعر بأن بيروت قد تغيرت كثيراً ، لولا هذا الازدحام المائل في شوارعها الضيقة المتقاطعة وضجة أبواق السيارات المتلاحقة وهدير محركاتها ، اما الطريق فقد بدا واضحاً انه واسع املس ، وان حركة السير مذهلة ومدهشة في حين بدت القرى اكثر اتساعاً واجمل منظراً واوفر غنى وبهجة . والأزياء الأوروبية اكثر انتشاراً !

وفي هدوء الحالم السعيد راح يستعيد ذكريات الأمس في هذه السفوح الضاحكة الساحرة ، فأحس بنشوة لذينة تسري في عروقه وانغمض عينيه باستزيمتها ويستوثق ، وعندما استيقظ كانت السيارة تتوقف وكان احد رجال الشرطة يد يده من نافذة السيارة وهو يتمتم : هويات .

وراح الشرطي ينقل نظره بين حمد وبين الأوراق التي كان يحملها ، دون ان ينطق بكلمة واحدة وراح يقلب تلك الأوراق بشيء من الملل ، وما عم ان دخل المركز ثم عاد بعد فترة يسلمها الى صاحبها وهو يشير بيده الى السائق بالانطلاق .

نحركت السيارة قليلاً ثم توقفت ثانية وقدم عسكري بقبعة الحمراء  
وشاربيه الأسودين الكشيفين ، يطلب من جديد الهويات يتفحصها ويعيدها بشيء  
من الاهتمام والتبهم الظاهرين .

وعندما كان الشرطي يتفحص الأوراق كانت عينا حمد عالتين بل  
مسمرتين في علم صغير بنجوم ثلاث حمراء يرفرف فوق الخفر الحديث ، وأحس  
بأن قلبه يخفق خلف ذلك العلم ... ودلو يقبله ... ودلو يضمه الى صدره ..  
لو يبلله بدموع راهب في محراب وأحس بأنه ينزلق من السيارة ويتصب في  
وسط الساحة يؤدي نحية عسكري خاطفة ثم يعود مسرعاً وهو يكفكف دموعه  
بكلتا يديه .

وبدا الحمد انه عاجز عن فهم ما قد حدث أثناء غيابه الطويل ، ومع ذلك  
فلم يحاول أن يسأل لماذا أقيم هذا البناء الضخم هنا يسد الطريق بجواز ووسائل  
من حديد تنتصب على جوانبها مخافر متنوعة الحجم والأشكال يخرج منها ويدخل  
جنود بقبعات حمراء أو شبه خضراء أو مجنوذ بموهة ، ورجال بثياب مدنية  
يركبون سيارات مسلحة ويحملون تحت معاطفهم مسدسات ضخمة ، وهذه  
المتافات المنخفضة المتلاحقة : هويات ، هويات يا شباب ... وهذا التفطيش الدقيق  
حتى الازعاج أحياناً ...

بالأمس عندما مرت قافلة العربات في طريقها الى بيروت لم يكن شيء  
من هذا على الإطلاق وكان هذا السهل الضيق على مدخل وادي القرن مبعثاً لنشوة  
انطلاق وتحرر من رهبة تلك المناهة الصخرية الرهبة .

وعندما بدأت الجبال الصخرية ترتفع وتضيق على جانبي الطريق وتسد  
السما الا شريطاً أزرق يتعرج بتعرج الوادي ، شعر حمد بأن الطبيعة هنا لم تغير  
الا قليلاً من وحشتها غير أن مرعة السيارة وهدير المحركات وتردد أبواقها في



المنعطقات الصخرية كل ذلك كان يخفف شيئاً من ملل الرحلة ووجومها .

وفي صحراء الدياس انطلقت السيارة تطوي الأرض بهدير كاد يوحى  
لحمد بأن ينبه السائق الى هذه السرعة الخطرة ، ولكنه لم يفعل ذلك فلعله كان في  
أعماقه يتناق مثل هذه السرعة ، وهل يستطيع أن ينسى مئات الأغاني التي كان يتغنّى  
فيما أن يكون طياراً أو أن يحمل جناح طير الى الوطن .

وعندما أطلت السيارة على الوادي الشديد الخضرة والتعرج ، بدأت  
تخفف من سرعتها ، وأخذ هديرها الحافت يمتزج بحفيف أوراق الحور  
والصفاف والمشمش .

وتطلع حمد بنهم صارخ الى الأشجار الخضراء الضخمة المرصعة بالذهب  
الأصفر ، وخيل اليه انه عاد طفلاً لا يستطيع أن يقاوم أو يخفي ذلك النهم بعد  
عشرين سنة أو أكثر من الحرمان .

وما أن توغلت السيارة قليلاً في هذا الوادي الأخضر الضيق حيث يخفي  
الحفيف هدير ضجة المحرك اللاهث ، حتى انتشرت في الجو رائحة غريبة أقرب ما  
تكون الى رائحة الكبريت ، وارتفعت من خلال فجوات التلال سحب خفيفة  
من دخان أسود وأبيض ، ثم ظهرت فجأة أعمدة عالية ، عالية تنفث دخاناً وبرزت  
جوانب من مصنع كبير تعج بالآلات والعمال ، وصناديق سوداء صغيرة تتحرك  
في الهواء ذاهبة آية ...

وشعر فجأة بأن الطريق الضيق المحصور بين النهر والجبل قد اتسع وان  
شارعاً واسعاً طويلاً تخف به الأشجار السامقة والبساتين قد انفتح على مآذن  
وقباب وأبنية مرتفعة متلاصقة في حين انتصبت على يمينه قلاع المزة التي لم تتغير  
كثيراً عن عهده بها ...

هذه هي دمشق ...

انه لم يكن يألفها من قبل ، كان يحس بأنه شبه غريب عنها ، غريب عن عاداتها وتقاليدها وأجوائها ، أما الآن فإنها تبدو في ناظره واحدة ضخمة تتلشى على أعتابها كل مخاوفه وكل ظمئه وكل متاعب حياته القاسية .

المدينة تعج بالسيارات والعربات والدواب والناس والدراجات في دوي صاخب وحركة عجيبة وتماوج من الوان وازياء واعلاقات ...

انه يعرف دمشق ، يعرفها جيداً ولكنه شعر بان لايعرف من دمشق الان الا تلالها ، والنهر وبعض مآذنها ، اما الشوارع واما الابنية واما الساحات فقد احس بان لمسة من اساطير الجن قد بدلنها .

وتوقفت السيارة والتفت حولها صبية صغار يتدافعون وهم يعرضون خدماتهم لنقل امتهمة المسافرين ، وعرف حمد من لهجة بعضهم ومن شرابيلهم الفضفاضة وكوفيانهم الملتفة كالعنقاء حول هاماتهم بانهم من حوران وعرف من لهجة بعضهم الاخر ومن عيونهم الشديدة اللعان بانهم من الجبل .

وفجأة قفز حمد الى الرصيف الاخر واطبق ذراعيه في عناق خاتق على كوفية بيضاء مصبوغة بالنيل الخفيف مشدودة بعصابة باهتة الالوان .

كان الشاب ذو الكوفية والعصابة المشدودة باذي الارتباك ، لم يستطع ان يتبين وجه معانقه ولكنه امرع يشد بيده على حافظه نقوده فقد برزت الى ذهنه فجأة صورة النشالين الذين يتصيدون الاغرار بمثل هذا العناق .

وقليلاً ... قليلاً تراخت يد حمد وراح يسبح دموعه باحدى كفيه وهو يشد بيده الثانية على كف صاحبه :

اذا حمد بن عباس ذياب ... من السويداء ... يا هلا . برحمة الاهل ..  
فتح الشاب الاسمر ذو الشاربين المسترسلين عينيه النجلوين بدھشة  
واستغراب ، وكأنه لم يفهم شيئاً ..  
وقابع حمد :

- اين موقف سيارات السويداء ؟ ..

واخذ الشاب يشير بيديه في اتجاه معين وهو يحملق في هذا الوجه الشاحب  
والشاربين الاشعثين والشعر الخفيف الاشيب والقامة النحيلة المنهزمة والنياب  
الفرنجية القديمة وان تكن على شيء من النظافة ..

ثم انصرف بلا استئذان ، وكأنه يفلت من مجنوث هارب وعاد  
حمد الى اشيائه القليلة يحملها تحت أبطه ويشد على عصا الابنوس السوداء  
القصيرة ويمجر ساقيه في كآبة ظاهرة في الاتجاه الذي أرشده اليه الشاب ذو  
العصابة الباهتة .

وبدا على حمد الارتباك والتردد وهو يحاول اجتياز الشوارع ... كان  
كثير التلفت بسرعه احياناً ويتباطأ أحياناً أخرى بلا سبب سوى ما يوجه اليه  
خياله أو مبادعته ، وشعر غير مرة بان بعض السواقين كانوا يتعاشون صدمه  
بشيء من الاشفاق وان بعضهم كان يشتم وهو يلوح بيده مهدداً .

وعندما وصل باحة صغيرة مهملة يقف فيها باص كبير يلتف حوله عدد  
من الشيوخ ذوي العظام البيضاء والعي المسترسة وبعض الشبان ذوي السراويل  
الواسعة او البذلات الاوروبية ، وبعض النساء بنياجهن الحريرية الفضفاضة الزاهية  
الالوان والمناديل البيضاء الشفافة وصفوف الذهب المكدمة فوق الجبين والصدغين  
وهن يستندن الى سلال الفواكه والحضار والصاديق الصغيرة والاكياس

المختلفة الحجم .. احس بشيء من الذهول ولكنه تشجع عندما تقدم شيخ من  
كوة خشية صغيرة ودفع بعض المال الى رجل ممين يلبس الطربوش ويطل  
برأسه بين فتوة واخرى من تلك الكوة وهو يوزع أوامره وتعليماته على الحمالين  
والركاب والمعاونين ..

تطلع الرجل السمين ذو الطربوش الاحمر الى هذا الشبح الغريب الذي  
يتقدم منه وتضاربت في رأسه شتى الافكار والصور وتمم وهو يمد يده ليقبض  
الاجرة ويسجل الاسماء .

اسمك ؟

— حمد بن عباس ذياب من السويداء .

ورنت في اذن الرجل كلمة بن بلهجة مغربية ، وكادت يده تتجمد في  
الهراء ولكنه ما عثم ان تناول المال ودفع به في فتحة صندوق امامه واعاد بعض  
القطع الفضية والنحاسية الى الشبح الذي بدأ يستدير ليتخذ له مقعداً في الباص .  
جلس واجماً وهو يشد بكفه للناحية على عصاه القصيرة الشديدة اللدعان  
وقد شد باليد الاخرى على أشياءه القليلة الجائفة فوق ركبته المضمومتين .  
وصعد السائق الى مقعده ، وراح المعاون يصرخ :  
يلا يا جماعة .. يالا يا شباب ..

وتسارع الذين كانوا لا يزالون في الباحة وبدأت جلبة واضحة ، وبعض  
التزام على المقاعد وارتفع صراخ طفل وصوت امرأة تريد أن تتأكد من وجود  
سلتها في مكان أمين على السطح ..

وبدأ المحرك يهدير وأخذ المعاون يربط الجبال فوق سطح السيارة الضخمة  
وعندما بدأت العجلات تتحرك يبطه كلن الشاب الصغير قد قفز الى الارض يفتح

الطريق امام السائق ثم قفز من جديد الى الباب الخلفي بفتحته بحففة ورشاقة ويسند ظهره الى المقعد الطويل المتقلقل .

كان باب الجابية كمعادته بل اكثر يعج بالناس على اختلاف ازيائهم ولهجاتهم وكانت الاسواق حول الساحة مسقوفة مظلمة تتدلى من دكاكينها الحشبية الصغيرة المتلاصقة المناخل والاحذية والجلود وترتفع في جنباتها اصوات مطارق النحاسين في جلبه اجراس الاعداد .

هذه هي السناينة لم تتغير ، وهذا باب المصلى وهذه بوابة الميدان على حالها كان لبنة واحدة فيما لم تبدل وكان مشرفة واحدة فيها لم ترمم .  
وقابع بعينه المناظر التي بدت وكأنها تتحرك حوله ..

هناك مطار المزة الذي كان مسرحاً لتسلل الثوار والمغامرين ، وهناك قرى الغوطة الشرقية التي كان يعرف بساكنيها واحواشها ودروبها شبراً شبراً ، انها تختفي خلف غابات الزيتون والشمش والجوز واشجار الحور المشوكة ، الا ان ذكرياتها كانت تقفز في ذهنه نابضة بالحياة كأنه يحياها الآن .

وراح يتذكر رفاق الأملس .. سقط الكثيرون منهم في ساحات الشرف ووقع الكثيرون أمرى وجرحى وها هو الآن يعود حياً لا يدري من بقي منهم على قيد الحياة ، ولا يعلم من سيتيح له القدر ان يتسامر وإياه ، عن تلك المعارك الرهيبة المتلامعة التي شهدتها الغوطة والتي لا تزال مجال اعتزازها وفخرها .

وبدأت الشمس تختفي خلف جبل الشيخ ، وهي توشى الغيوم بخيوط من ذهب وارجوان وتنعكس على قمم لا تزال تلتفع ببقايا الثلوج ، وبدأت اضواء السيارة تشع فوق الطريق الطويل الاملس ، وبدأت تلتمع في جانبيه بين الفترة والفترة عيون الوحوش التي كان بعضها يسرع في الاختفاء بين حقول القمح

الشاحنة في حين يظل بعضها واقفاً وكأنه يتحدى او يتفرد في ذلك الوحش  
الغريب الضخم الهادر .

شعر بالبرد فارتجفت مفاصله كأنما عاودته البرداء ، فراح يتعامل على  
نفسه في جهد ظاهر - وتطلع اليه جاره بشيء من الاشفاق فاحكم اغلاق النافذة  
وهو يتم بصوت مسموع :

- مبسوط خواجه ؟..

كان الرجل يظنه من بعض الارمن النحاسين الذين يترددون على الجبل  
وحاول ان يغريه بالذهاب الى قريته حيث الزبائن كثيرون وحيث لا يتردد الا  
بعض الميضين المتدثين ، الا ان الرجل لم يسمع اي جواب فلاذ بالصمت من جديد .  
ولاح من بعيد ضوء احمر ، وعمود يسد الطريق ثم لوحة مستديرة  
كتب عليها بالعربية والانجليزية ، قف ، وخرج من الخفر جنديان بقي احدهما  
في الارض وصعد الثاني بقبعته الحمراء الى السيارة :

- هويات ..

وبدا العريف يتفرد في الوجوه وهو يتفحص الهويات ، واحدة واحدة  
في سكوت مطبق يتخلله احياناً بعض الجدل لا يلبث العريف ان يقطعه بنبرة  
جافة متوعدة او مؤنبة ، وتوقف طويلاً الى جانب حمد ، ينقل نظراته التي بدت  
حاددة قاسية بين الوجه الشاحب الغريب ، ورزمة الأوراق المقدمة اليه مختلفة  
الحجوم والألوان واللغات .

ولاحظ الشرطي ان ابصار المسافرين جميعاً قد تسمرت في وجهه العابس ،  
وانما ترتقب منه ان يكشف هذا الشعب الغريب الذي بدا لهم لغزا تريد تلك  
الرزمة من الأوراق تحقيقاً واحراجاً .

ولم يجد العريف على ما يظهر حلا سوى استدعائه الى المحفر ، فاشترى يده  
اشارة خاطفة ان اتبعني وسار امامه وهو لا يزال يحمل في رزمة الأوراق  
بين يديه .

- اسمك ؟

- حمد بن عباس ذياب من السويداء .. حكمني الفرنسي بالاشغال  
لشاقة عشرين سنة .. وصدر عفو وعدت الى بلدي ..

لم يكن رئيس المحفر بطبعه سهل التصديق ، وخاصة في تعامله مع مناطق  
الحدود ، فقد كانت الريبة والشك والحذر هي الأصل في نظرته الى الاشياء  
والاشخاص ومع ذلك فقد احس نحو الرجل للعجز المرتجف بشيء من الاسفاق ،  
فقدم اليه قدحاً من الشاي اعاد الى ذاكرة حمد اقداح البابونج التي كانت تقدمها  
له امه كلما احس بالبرد .

ولم يحاول رئيس المحفر ان يستمع الى أي تفصيل وان اغراه الفضول  
فقد ادرك ان المكان والزمان والبص الكبير الجاثم امله لا تسمع  
بالحديث المستفيض ..

وفتح الحاجز ، وعادت السيارة الكبيرة تهر من جديد في السهول التي  
يغلفها الظلام رغم النجوم التي كانت تلمع في السماء بصفاء غريب .

كانت تلوح على جوانب الطريق احياناً أضواء خافتة بعيدة او قريبة  
لقرية لم يكن يبدو منها غير شبح اشد اسودادا من الليل الذي يغلفها ، ولم يكن  
يسمع في جنباتها غير عواء الكلاب وبنات آوى .

قربة واحدة كانت تنيرها الكهرباء ويمتازها خط حديدي وترتفع فيها  
اعمدة الأسلاك الشائكة لتحمي بعض المنشآت العسكرية .

لم ينزل احد من السيارة حتى الآن إلا ان بعض المسافرين اخذوا يستعدون للنزول فاحس حمد بأنه يقترب من منطقة الجبل من مسقط رأسه ، من ذكريات طفولته وشبابه ، من ميدان جهاده ، من رفاق السلاح ، من الأم التي ظلت تنتظره بايمان اللدبيين اثنين وعشرين عاماً ..

وبدأت السيارة بين الحين والحين تتوقف لينزل منها بعض المسافرين يحملون اولادهم وامتعنهم وسلاهم على اكتافهم او ظهورهم ويدلفون بصمت رهيب نحو القرى التي كانت للتمتع فيها بعض الأضواء الباهتة الصفراء في اطار من ظلام الليل الموحش والقتال الصخرية الخفيفة فتزداد بعدا وتزداد كآبة .

وفي الأفق العالي بدأت تتراقص مجموعة من الاضواء اشبه ما تكون بالنجوم المتناثرة والمتقاربة ، انها السويداء ...

— آه ما اجملها ! ما اروعها ! ..

لم يكن حمد يعتقد انه سيراهما بهذا البريق المتلاليه ويبدو انها قد اصيبت مدينة صغيرة في غيابه .

وشعر حمد بأنه بدأ يتعرف الى المناطق المحيطة به رغم الظلام : هذه هي رقة الصخر على يمينه حيث اجهز على بقية حملة ميشو ، وهذه هي السجن ، والمزرعة ، وهذه هي الطريق المصعدة بين كروم السويداء وحقولها ...

وعندما اقبل على المدينة ذات الاضواء البوافة لم يصدق بادىء الأمر انه يقبل على مسقط رأسه فان هذه الابنية الحديدية الملونة الجميلة ، وهذه الاضواء والشوارع المعبدة في هذه البقعة النائية عن البلدة ليست من السويداء التي يعرفها ... وفجأة انقطع نيار ذكرياته وقاملته عندما توقفت السيارة التي لم يبق من ركبها الا للقلائل امام حاجز خشبي تقدم من خلفه شرطي يتنف بصوت عال حاد كأنما يحاول ان يوقظ من نوم انه قائم :



- هويات ...

ومن جديد قدم حمد اوراقه ، ومن جديد راح الشرطي يتفرس في وجهه ويحتمل في الاوراق الممدودة اليه ، ولكنه مرعان ما اعادها الى صاحبها كأنه يتهرب من مجابهة هذا اللغز ويلقي تبعته على المغافر الاخرى التي مر بها .

وفي الساحة العامة توقفت السيارة الى جانب مثيلة لها وتراكم حولها صيان صفار وكبار وهم يتدافعون ويتصارخون وقد بدت ثيابهم مهلهلة ونعالهم بالية مرقعة ، وشعورهم مشعثة مسترسلة . . . ولتقدم بعضهم من ( الحواجه ) الغريب وهم يحملون بضاديق وامتنعة تكلمهم جميعاً ، الا انهم مرعان ما ابتعدوا عنه وهم يركضون نحو زبون آخر ، عندما نزل الشبح الشاحب الصامت وهو يحمل تحت ابطه رزمة صغيرة وفي يده عصا سوداء للتعلم في الاضواء لمعاظا لم بالفوه .

\* \* \*

كان الحارس يتجول في الساحة ، فتقدم يتفرس من بعيد في وجه حمد ويتفحص الاشياء التي يتأبطها ، وعندما سار حمد باتجاه حي المشنقة ، سمع صفرة عالية من موقف السيارات انطلقت على اثرها صفرة خافتة بعيدة ، وقابح دون ان يسأل احداً فقد كان على يقين من ان السويداء القديمة لم يحدث فيها اي تغيير يحول دون وصوله الى البيت وحيداً بلا دليل .

وعندما اجتاز حي المشنقة في اتجاه الزقاق الطويل الموصل الى مطبخ قصر نجمه ، فوجئ بشارع طويل مستقيم تغطيه الحجارة المرصوفة رصفاً حديثاً وقد تراكت على جانبيه بقايا الابنية والعلالي التي هدمها الشارع الحديث . ومع ذلك فقد سار في ذلك الشارع بتذكر بعض الابنية فيه وبعض الازقة المفضية اليه ، لا يكلم احداً من المارة ولا يكلمه احد وان احس هو في احمائه بان نظرات

الريبة والاستغراب كانت تشيعه ، وان هو لاحظ ان حارس الحلي يتبعه من بعيد بكثير من الاهتمام والقلق ...

وتوقف امام بعض البوابات على يسار الشارع الا انه ماغم ان ابتعد عنها وهو يتفحص بوابات الحشب والتوتياء ويرفع رأسه الاشيب الى الاعلى بين الفترة والفترة .

وتوقف امام بوابة خشبية منهاكة ترتفع خلفها اغصان شجرة توت عالية لأوراقها الفتية حفيف ناعم .

واحس حمد بالدم يتدفق الى رأسه ويرجفة تهز ركبتيه هذا متلاحقاً وسمع دقات قلبه تتوالب بلا انتظام ، وعندما رفع عصاه بقرع بها الباب قرعاً رقيقاً كانت يده ترتجف والعرق البارد ينصب من جبينه .

ولاح نور قنديل خافت في الباحة ولقد مدت خطوات بطيئة متناقلة وانتقل في الظلام صوت متهدم حاولت صاحبه ان تودعه شيئاً من الثقة بالنفس وان بدت في ثناياه نبوات من الخوف والتردد .

وعندما صرت البوابة وهي تفتتح ببطء وحذر كان حمد يرتقي في عناق صامت على الوجه المفضن الملتفح بمنديل ابيض سميك .

## الخاتمة

غصت دار عباس ذياب بالناس ، شيوخ ، وشباب ، ونسوة حتى الاولاد كانوا يتجمعون فوق السطوح المطلّة او يملئون رؤوسهم الصغيرة من خلال البوابة وهم يتهايمون او يتدافعون ، وفاحت رائحة القهوة والهمال وترددت اصدااء المبهج الطروب في الحلي الذي بدا في شبه عيد او مهرجان واشعلت نيران الزينة فوق السطح وراح الشباب يهزجون في اضوائها المتراقصة الحافطة حيناً واللاعبة احياناً وهم يرددون على الحان الجهوز والشبابية .

فانلاقي حمد ذيابي

عالمزرعة ياشبابي

كان حمد يبدو نشيطاً مرحاً يوزع ابتسامته مع فجاجين القهوة المرة ، يرد على اسئلة الجميع ويحدث الجميع بكل بشاشة وانطلاق ، وان توقف بعض الاحيان يفتش عن الكلمة المناسبة وان كانت بعض عباراته مزيجاً من اللهجة المغربية المشوبة بالفرنسية الركيكة .

وكان يستمع بشغف وشوق الى احاديث رفاقه القدامى عن الثورة وما بعد الثورة عن الكفاح المستمر العنيد في سبيل الوحدة والاستقلال وعن معاهدة

١٩٣٦ وعن عودة المجاهدين من الصحراء بعد اثني عشر عاماً من الغياب وعن الحرب العالمية الثانية ومعارك ١٩٤٥ الرائعة ، البطولية التي أدت الى الجلاء ... وكانت النسوة يجدن أم حمود من ضرورة زواج حمد ، يجب أن يكون له من يتم به ، بأكله بغسيل ثيابه ، بترتيب بيته ، وأن يكون له ولد تفر عنه به بعد الشقاء الطويل ، ربك كريم يا أم حمود ..!

تذكرت أم حمود العروس التي انتظرت حمد عامين كاملين وتذكرت أنها شاهدها في السنة الماضية في ( البلخي ) مع ابنة لها في الحامسة عشرة من العمر ، وانها سلت عليها ، وتذكرت بسمة استخفاف كانت تبدو على شفهي الصبية الصغيرة عندما كانت العجوز تلمس ضريع الولي قبل جنباته بالدموع وتغمرها بالقبلات المحرقة وهي تردد :

- يا بلخي ... لك مني كبش ان رجع حمد ، لك مني أزورك حافية يا بلخي ...

ولم يتردد حمد عندما عرضت عليه العجوز فكرة الزواج ، بل خيل اليها انه كان يرغب بذلك فهو لا يزال رجلاً ولن يسمع للناس ان يتهاوسوا بان المتأني قد افقده شيئاً من رجولته ، وهو يقشوق لان يكون له ولد بل أولاد .

كان يعرف جيداً بانه فقير ، بل معدوم وان المئة والاربعين ليرة سورية التي قدمها له بعض الشباب هدية قد نفدت وميع ذلك فهو يشعر بانه رجل لا يزال قادراً على العمل ، رغم كل شيء وانه يستطيع ان يكون رب عائلة مثل كل الناس .

وهو يشعر أيضاً بأنه يجب ان لا يكون هدفاً لشهامة أولئك الذين  
اوقعوه في الأمر .

وبذات بعض المساعي من أجل تأمين وظيفة للرجل ، وبعد الحاح من  
رفاق الجهاد ، وجد بين المتفذين في الدولة من استطاع أن يؤمن له وظيفة  
آذن ... وظيفة فرائس ...

\* \* \*

وذات يوم وقف حمد وقفته العسكرية المعتادة أمام رئيسه الجديد ،  
اليدان مشدودتان الى الجانبين والقدمان بشكل سبعة ، سلم بصوت واضح وان  
يكن منهدجاً الا انه لم يسمع جواباً بل همسة خافتة ، ثم دمدمة عالية :

— اسمع .. أنا لا أقبل الكسالى في الوظيفة .

لا أقبل أن تتأخر دقيقة واحدة عن العمل ..

وجه حمد وارتجفت ركبته ، وازداد لونه شعوباً وتمتم ..

— سيدي .. أرجوك .. كل الليل وأنا سهران على زوجتي وهي تلد  
بشروني بفلام ومع ذلك جئت الى الدائرة قبل ان اراه ...

وسمع حمد او خيل اليه انه يسمع :

— اولاد ! .. وفي مثل هذه السن ! .. وفي مثل هذه الحالة ؟!

ثم ارتفع الصوت حاداً جافاً ، وامتدت اليد بإشارة حانقة نحو سلة فارغة  
في زاوية المكتب :

— بسرعة ... الأفاضل عند السمان .. والست دوختنا بالتلفونات ..

جر حمد ساقه المرتجفتين نحو السلة جراً وانحنى يحملها كأنه يرفع صخرة  
وتراجع نحو الباب يحاول ان يحمي رئيسه ..  
وفي منتصف الشارع توقف بلا شعور بشغل سبكرة ثم ينطلق في جهد  
ظاهر مكابر وهو يتعم :  
- معايش يا حمد .. آذن .. عتال .. لا باس .. عندك عجوز ..  
وصار عندك صابر ...

١٩٧١ / ١١ / ٢٠٠٠

حمد ذياب (أبو صابر) من بسطاء الناس قطوع  
في الجيش الفرنسي ، وأدرك بنظرته السليمة معنى  
الاستعمار فتمرد عليه وانضم الى ثوار جبل العرب  
واستبسل في معارك هذا الجبل الأثم والغوطتين ؛  
ثم اعتقل وعذب ونفي الى ... غويانا ( في أمريكا  
الجنوبية ) ، فعاش في أدغالها جائعاً ، عطشاً ، عريان ،  
ربع قرن . ولكن بقي في أعماق نفسه من العزيمة  
والرجولة ما مكنه من العودة الى وطنه ، وممارسة  
عمله انساناً بين الناس .

إذا قرأت هذه الرواية فستظن لأول وهلة أنها  
من ابداع روائي فنان ، ولكن الأديب سلامة عبید  
اقتصر على دور المؤرخ الأمين . ومع ذلك فالتاريخ  
الذي يسرده قطعة فنية تربطك بمن هم حقاً أبطال  
هذا الوطن وبناته .

